

رحلة الأدب في أفغانستان بين الغوريين والغزنويين

محمد أمان صافي

إن الحضارة الإسلامية في أفغانستان وحدة متماسكة لا تقبل التجزئة أو التفرقة رغم تعدد لغاتها التي تصورها وتعبر عن مفاهيمها الأدبية، وهي في الواقع لغات عديدة ومختلفة تشترك في التعبير عن الصورة الأدبية للحضارة الإسلامية في أفغانستان، وتندمج اندماجا كاملا في القيام بدعم القيم الأدبية الإسلامية والنهوض بها منذ قيام الإمارات الإسلامية التي تنبثرت عن الخلافة العباسية، وقد أثرت في مجالي الحياة الأدبية والفنية تأثيرا بعيدا وقويا ينعكس صده المؤثر في مختلف الفنون والألوان الجمالية والبيانية في القول الأفغاني الإسلامي.

والدول الإسلامية التي تنبثرت عن الخلافة العباسية ونشأت أو نمت في أفغانستان وترعرعت فيها ولعبت دورها الأدبي كثيرة ومتعددة، أهمها وأكثرها تأثيرا في الحياة الأدبية والفنية واللغوية المقارنة دولتان، الأولى الدولة الغورية، وهي دولة جذورها من أصول أفغانية لم تقدر أعمالها الأدبية وفتوحاتها الإسلامية حتى الآن تقديرا سليما يليق بها وبأعمالها الأدبية، وفتوحاتها التاريخية. والثانية الدولة الغزنوية التي تأسست في غزنة، وقد قدر العلماء والمؤرخون ما قامت به من الأعمال الأدبية وفتوحات الإسلامية تقديرا عظيما يخلد ذكرها العطرة على مدى التاريخ الإسلامي.

وحريُّ بنا إذا اتجهنا إلى مجال المقارنات الأدبية بين شاعرين من شعراء الدولتين، وهو مجال أدبي طريف وظريف لم يطرق بابه إلا نادرا، أن نتجه أولا إلى الحديث عن الدولتين وما بينهما من أوجه التشابه والتباين في المجالات الأدبية والفنية، وكذلك ما بينهما من التناظر والتمايز في الفتوحات الإسلامية التي قامت بها الدولتان اللتان انطلقتا من قلب البلاد الأفغانية لنشر المبادئ الإسلامية وآدابها في ربوع الهند الفسيحة.

الغوريون والغزنويون

١- الغوريون:

الدولة الغورية عريقة في جذورها التاريخية، أصيلة في أصولها العرقية، لعبت دورها الحضاري في المجالات الأدبية من عاصمتها "فيروز كوه" التي تربض متنامية في واد تحيط به سلسلة صعبة من الجبال الراسخة التي تشكل الجزء الغربي من جبال "هندوكش" العالية. وقد حافظ الغوريون المحاربون الأشداء، وهم من الأفغان^(١) الأقوياء الذين يعيشون في بلاد الغور على استقلالهم الفكري والأدبي، وعلى حريتهم السياسية على مدى تاريخهم الطويل باستثناء فترة من العصر الغزنوي الذي اهتز فيه استقلالهم السياسي الذي استعادوه في نهاية هذا العصر بعد أن استأصلوا شأفة الغزنويين وقضوا على آخر ملوكهم، وهو خسرو شاه الغزنوي الذي قُتل سنة ٥٢٨هـ/ ١١٨٦م أيام شهاب الدين الغوري^(٢)، وخبا نجمهم إلى الأبد.

من هم الغوريون؟

الغوريون أو السوريون تصل جذورهم العرقية إلى ما قبل العصر الويدي في أفغانستان القديمة، وينتمي إليها حاكم "مرو" ماهوية السوري "الغوري" الذي قد أوعز بقتل آخر الملوك الساسانيين "يزدجرد"^(٣) الذي فر هاربا نحو الشرق بعد هزيمة جيشه الجرار في المعارك التي دارت بينه وبين المسلمين. وقد أسلم حاكم "مرو" ماهويه السوري "الغوري" بعد ذلك على يد الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه^(٤) وقد ذكر الفردوسي ذلك في ملحمة الشهيرة شاه نامه^(٥). ويتحدث المؤرخ الأديب منهاج الدين عثمان بن سراج الدين الجوزجاني بالإضافة إلى الملوك والأمراء والحكام

- ١ - براون، إدوارد جرانفيل: تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربي، مطبعة السعادة بمصر، القاهرة، ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م، ص ٣٨١، الترجمة العربية؛ وعبد الحي حبيبي: تاريخ أفغانستان بعد أزل إسلام، ١: ١٢٧-١٣٧، كابل، ١٣٤٥هـ/ ش/ ١٩٦٦م.
- ٢ - إبراهيم حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، الجزء الرابع، الطبعة الثانية، ٤: ١٨٦، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٢م.
- ٣ - الطبري: نفس المصدر، ٤: ٢٩٤، وعبد الحي حبيبي: نفس المصدر، ١: ١٢٧-١٣٠.
- ٤ - عبد الحي حبيبي: نفس المصدر، ١: ١٢٨، ومحمد أمان صافي: أفغانستان والأدب العربي عبر العصور ٥١ وما بعدها، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- ٥ - عبد الحي حبيبي: نفس المصدر، ١: ١٢٧-١٣٧، وسيد بهادر شاه كاك خيل: بشتانه د تاريخ به رنا كى، ٣٧٠، يونيوستي بك إيجنسي، بشاور، ١٣٨٤هـ/ ١٩٥٦م.

الغوريين عن شخصيات بارزة أخرى من أمثال "سور" الملك، و "سام" القائد، وكانا من أخوة سهاك "الضحاك" الأسطوري كما قيل^(١)، وبسام بن مهشاد حاكم باميان وغيرها، يبدو أن كل واحد من هؤلاء الغوريين كان يستقل بحكم إقليم من الأقاليم الأفغانية آنذاك.

الغوريون في العصر الإسلامي:

وفي العصر الإسلامي نذكر ماهويه السوري "الغوري" الذي مرت الإشارة إليه آنفاً، وشنسب بن خرنك زعيم الأسرة الشنسية الحاكمة الذي كان معاصراً لماهوية السوري "الغوري" حاكم مرو، وقد أسلما في الكوفة على يد خليفة المسلمين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه^(٢)، وفولاد "يولاد" حفيد الأمير شنسب ومن أنصار أبي مسلم الخراساني، والأمير "كرور" بن فولاد الشهير بجهان بهلوان "بطل العالم أو بطل الأبطال" الذي تولى الحكم سنة ١٣٩هـ/ ٧٥٦م، وكان من أنصار أبي مسلم الخراساني، وانتصر في كثير من حروبه التي خاضها في هذا الشأن، وقام بتسجيل ذلك في قصيدة حماسية رائعة منها الأبيات التالية^(٣):

إنني أسد فريد على وجه البسيطة، لا أحد أكثر مني شجاعة وبطولة لا في بلاد الهند والسند، ولا في بلاد تخار، ولا في كابل ولا في بلاد زابل أيضاً، لا أحد أكثر مني شجاعة وبطولة. إن سهام عزيمتي، ونبال إرادتي تهوي على الأعداء كالبرق إنني أقوم باقتحام (نار) الحرب والوغى، وأنتبع الفارين وأيضاً أتعقب المغلوبين المنهزمين، لا أحد أكثر مني شجاعة وبطولة. إن الفلك يقوم بالدوران حول انتصاراتي افتخاراً بها حافر حصاني يهز الأرض، ويجعل الجبال مضطربة أقوم لتحقيق "الهدف" بتدمير الممالك، لا أحد أكثر مني شجاعة وبطولة. ومن الملوك الغوريين المشهورين الأمير محمد السوري "الغوري" الذي كان يعاصر سبكتكين ويقاسمه البلاد، وقد حاول الأخير الاستيلاء على بلاد الغور والقضاء على حاكمها محمد السوري ولم

-
- ١ - عبد الحي حبيبي: نفس المصدر، ١: ٤٥٩؛ ومحمد داود هوتك: بته خزانه، الطبعة الثانية، تحقيق عبد الحي حبيبي، دار التأليف كابل، ١٣٣٩هـ/ ١٩٦٠م، ص ٢٢٤.
 - ٢ - سيد بهادر شاه كاك خيل: نفس المصدر، ص ٣٧٠، وحبيبي: نفس المصدر، ١: ١٣٢، ومنهاج الدين عثمان سراج الدين الجوزجاني: طبقات ناصري، جزآن، تحقيق: بوهاند عبد الحي حبيبي، طبعة كابل، ١٣٤٢هـ ش، ٢: ٣١٨.
 - ٣ - محمد داود هوتك، نفس المصدر، ص ٣٤، عبد الحي حبيبي: نفس المصدر، ١: ١٣٢-١٣٦، ومحمد أمان صافي: الأدب الأفغاني الإسلامي، ص ٦٧، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

يوفق في ذلك، ولكن ابنه محمودا أعاد الكرة فتمكن من إلحاق الهزيمة به وأسرته، فمات في الطريق قبل أن يصل إلى غزنة، فرثاه صديقه وشاعر بلاطه الشيخ أسعد بن محمد السوري "الغوري" بقصيدة منها الأبيات التالية^(١):

كيف أشكو، ولمن أرفع شكواي من حوادث الدهر
حيث يذبل كل زهرة تبتسم في موسم الربيع
فكلما تفتحت زهرة وابتسمت في الصحراء
أتت عليها حوادث الدهر، فسقطت منثورة الأوراق
كم من الوجوه سالت منها الدماء بأمر القدر
وكم من الرؤؤ وُ توارت - بأمر القدر - تحت التراب

ومن الأمراء الغوريين العلماء الأمير عباس شيس السوري "الغوري" الذي قتل ابن أخيه أبا علي السوري "الغوري" وتولى أمور البلاد الغورية، وكان معاصر للسلطان إبراهيم بن مسعود الغزنوي، وكان من علماء علم النجوم والهيئة، وقد بنى في قصره اثني عشر برجاً بعدد البروج في السماء، وبنى في كل برج ثلاثين باباً بحيث كلما دخلت الشمس في برج من بروج السماء ظهرت في الوقت نفسه فيما يقابله من بروج قلعتة، وظهرت كذلك كل يوم في باب من أبواب ذلك البرج، الأمر الذي يدل على مهارته الفائقة في علم النجوم والهيئة^(٢).

مكانة الأدب عند الغوريين

ومن الملوك الغوريين الشعراء علاء الدين حسين الذي أسرع إلى أخذ الثأر لمقتل أخويه قطب الدين محمد و سيف الدين سوري اللذين قتلتهما الغزنويون بعد أن استخفوا بهما وسفهاوا عليهما، فأنزل سخطه على غزنة وأمر بنهبها، وأضرم النار فيها، وفر منها بهرام شاه الغزنوي هارباً^(٣) "وأخرب عمارات محمود ومسعود وإبراهيم، واشترى مدائحهم بالذهب وخبأها في

١ - محمد داود هوتك: نفس المصدر، ص ٤٠، ومحمد أمان صافي: بست وسيستان وأهميتها التاريخية والأدبية، دار شرف للطباعة والتجديد القاهرة، ١٣٧٠هـ ش، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص ٨٥، وعبد الحي حبيبي: لغة البشتو، ترجمة المكتب الثقافي والصحافي بالسفارة الأفغانية بالقاهرة، مؤسسة دار التحرير للطبع والنشر، القاهرة، سنة...؟، ص ٢١، وسيد بهادر شاه كاكاخيل: نفس المصدر، ص ٣٧٧.

٢ - سيد بهادر شاه كاكاخيل: نفس المصدر، ص ٣٧٩، ومحمد أمان صافي: أفغانستان والأدب العربي عبر العصور، ص ٤٦٤.

٣ - براون: تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، ص ٣٨٣، الترجمة العربية.

الخزائن" (١)، الأمر الذي يدل على تقدير الغوريين للأدب. وقد أنشد علاء الدين حسين قصيدة ضمنها انتصاره على الغزنويين منها هذا البيت من الشعر (٢):

على الرغم من تعاون كل حكام الهندوس ومساندة أمرائهم للخصم
فإنني قد حطمت بعصاي الحديدية رؤوس كل الحكام والأمراء

انتقل غياث الدين الغوري إلى جوار ربه في جمادى الأولى سنة ٥٥٩هـ / ١١٦٤م في مدينة هرات (٣) بعد أن حكم البلاد لمدة إحدى وأربعين سنة متواصلة، وكان عمره عند وفاته ثلاثة وستين عاماً (٤)، وكان ملكاً مظفراً، بنى كثيراً من المساجد والمدارس، كثير الإحسان إلى الفقهاء وأهل الفضل والفقراء، وكان فيه فضل غزير، وأدب عظيم، وبلاغة وحسن خط، وكان ينسخ المصاحف بخطه ويوقفها على المدارس التي بناها في بلاده (٥). وقد مدحه الشاعر الأفغاني تايمني في قصيدة له اخترت منها ما يأتي (٦):

لساني يلهج اليوم مغرداً بمدح السلطان والثناء عليه
لشرفه ونبله وجهاده، ولشموه سلطانه العالم كله

ثم يقول مادحاً:

إن السلطان غياث الدين شمس العالم ونوره
العالم كله مستفيد من فيوضاته استفادة عظيمة
فقد أضاء بلاد الهند بنور الإسلام وضيائه
وقد أرضى بذلك خير الأنعام فرضى عنه

السلطان شهاب الدين بن بهاء الدين سام الشهير بالسلطان محمد الغوري من أقوى الملوك الغوريين، وهو في فتوحاته الإسلامية ند لكل من السلطان محمود الغزنوي الذي كان فيه، والإمبراطور

-
- ١ - نظامي عروضي سمرقندي: جهار مقالة، الطبعة الأولى، ترجمة عبد الوهاب عزام ويحي الخشاب، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩م، ص ٣٧، الترجمة العربية.
 - ٢ - بهادر شاه: نفس المصدر، ص ٣٨٢.
 - ٣ - ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار الفكر بيروت، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.
 - ٤ - بهادر شاه: نفس المصدر، ص ٣٨٥.
 - ٥ - ابن الأثير: نفس المصدر، ٩: ٢٥٩، بهادر شاه: نفس المصدر، ص ٣٨٥.
 - ٦ - حبيبي: تاريخ أدبيات البشتو، الجزء الثاني، بشتو تولنه، كابل، ١٣٤٢هـ ش، ٢: ١٤٦، وبهادر شاه: نفس المصدر، ص ٣٨٦.

أحمد شاه الأبدالي الذي جاء بعده، ومن حروبه الإسلامية حرب تراوري على شاطئ نهر سرسوتي التي أصيبت فيها إحدى يديه، وكان في جنده شاعر من شعراء الأفغانية، ومقاتل من مقاتلي الأفغان في هذه المعركة، وقد أنشد وهو في المعركة قصيدة حماسية رجزية لإثارة الحماس الإسلامي في قلوب الجنود، يدعوهم فيها إلى الصبر وتحمل المشاق في سبيل النصر، وفيما يلي عدد من أبياتها الشعرية^(١):

إن الله معنا بقدرته وهو يلهمنا طريق النصر
قد آن الأوان لنخوض حرباً فجائية ضارية
في بلاد غريبة بعيدة نائية هي لغيرنا
فتنبهوا يا معشر المجاهدين المناضلين إلى ذلك
إن الله ناصرنا بقدرته، وهو يلهمنا طريق النصر

عاصمة الغوريين

فيروز كوه "جبل النصر" اسم للعاصمة الغورية، وهو مركب من كلمتين "فيروز" معناها الظافر والفتح والنصر، و "كوه" ومعناها الجبل، ومعنى الاسم مركباً "الجبل الظافر" أو "الجبل الفاتح" أو "جبل النصر". فقد لعبت فيروز كوه دورها القيادي في المجالات الأدبية والعلمية، وهي ترض بين كل من بادغيس، وهرات، وفراه، وهلمند، وپاميان، وجوزجان، فقد كانت لهذه المركزية أثرها في الأدب شعره ونثره، فكانت تقوم بتشجيع الآداب العربية والأفغانية والدرية والتركية الشرقية ولغاتها حيث إن الغوريين كانوا مطالبين بذلك إسلامياً وسياسياً وإقليمياً، ولذلك نرى فيروز كوه وقد سادت الآداب واللغات العربية والأفغانية "البشتوية" والدرية "الفارسية" والجغتائية "التركية الشرقية" جميع أنحاء أفغانستان في العصر الغوري نرى في البلاط الغوري في فيروز كوه أولاً ثم في غزنة ثانياً العلماء إلى جانب الشعراء، ورجال الدين إلى جانب رجال التاريخ، وأصحاب الفكر إلى جانب أصحاب الفن، والكل ينشد بلغته، ويكتب بلغته ويعبر عن أفكاره، ويصورها بلسانه الذي يلهج به في بيته وبين أبناء أسرته وبيئته الخاصة دون أن يكون هناك رادع أو مانع يمنعه عما يريد تصويره بلغة قومه أو قبيلته التي تأويه، فالآداب الأفغانية في العصر الغوري بفروعها الأدبية العربية، والبشتوية، والدرية، والجغتائية آداب إسلامية، نشأت إسلامياً، وتطورت إسلامياً، الأمر الذي يدل قطعاً على أن الملوك في "فيروز كوه" لم يتعصبوا لأدب ولم ينحازوا إلى جنس على حساب أدب أو جنس آخر.

١ - محمد نواز طائر: روهي أدب، ص ١٩٠.

كان البلاط الفيروزي في فيروز كوه "الجبل الظافر" مجمعا للعلماء والشعراء وأهل الفضل حيث كان الغوريون يقربونهم ويشجعونهم، وكانوا يقدرون الأدب والأدباء والشعر والشعراء، فقد حكى النظامي العروزي السمرقندي - وكان ينتمى إلى الغوريين^(١) - أن علاء الدين الحسين الغوري قد أمر "بتهب غزنة وأخرب عمارات محمود ومسعود وإبراهيم واشترى مدائحهم بالذهب"^(٢). هكذا كانت العاصمة الغورية الأولى فيروز كوه "جبل النصر والظفر" وهكذا كانت العاصمة الغورية الثانية غزنة، بل هكذا الملوك والأمراء والحكام الغوريون في كل من البلاد الأفغانية أولا، ثم في البلاد الهندية عندما انتقل ثقلهم الأدبي والسياسي إلى عمق تلك البلاد ثانيا، وبانتقالهم انتقلت إلى هناك الآداب والثقافة الإسلامية بعناصرها الإسلامية الثلاثة، العربية والأفغانية "البشتوية" والدرية "الفارسية".

المنظرات الفكرية في البلاط الغوري

وكانت المنظرات العلمية والأدبية والفكرية تنعقد في البلاط الغوري بالقصر الفيروزي في فيروز كوه، يشارك فيها عديد من علماء العصر، وعديد من فقهاء المذاهب الإسلامية، كالمنظرة التي اشترك فيها فقهاء الحنفية والشافعية والكرامية، واشتد فيها النقاش بين الإمام فخر الدين الرازي وكان شافعيًا، وبين القاضي مجد الدين عبد الحميد بن عمر المعروف بابن القدوة، وهو من الكرامية الهيصمية، فقام الملك غياث الدين الغوري من المجلس، فاستطال عليه الإمام فخر الدين الرازي، وشتمه، وبالغ في أذاه، وغياث الدين الغوري ساكت هادئ لا يرد عليه احترامًا، وابن القدوة يقول: لا، وأخذك الله، وانتهت المناظرة، وانفض المجلس، فلما كان الغد وعظ ابن القدوة بالجامع، وقال: "أيها الناس، إنا لا نقول إلا ما صح عندنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما علم أرسطاطاليس، وكفريات ابن سينا، وفلسفة الفارابي فلا نعلمها، فلأي حال يشتم بالأمس شيخ من شيوخ الإسلام، يذب عن دين الله، وعن سنة نبيه"^(٣)، وبكى فبكى الناس لبكائه، ضجوا وهاجوا، فوعدهم السلطان الغوري بإعادة الفخر الرازي إلى هرات، فعاد.

- ١ - حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ٤: ٤١٧، الطبعة الثالثة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٢م، ومقدمة جهار مقاله، ٥-٧، ترجمة عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب، الطبعة الأولى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م.
- ٢ - النظامي العروزي السمرقندي: جهار مقاله، ٣٦-٣٧، ترجمة عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب، الطبعة الأولى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م.
- ٣ - ابن الأثير: نفس المصدر، ٩: ٢٤٧.

المدارس في العصر الغوري

الملوك الغوريون يتميزون بالتدين الشديد، لذلك كانت وطأتهم على الملاحدة والكفار المشركين قاسية أشد القسوة، كذلك كانوا قساة غلاظا أشد الغلظة على أهل التشيع والإسماعيلية خاصة، كما سيأتي، وكانوا بالإضافة إلى ذلك أهل كرم، يكوموه الأدباء ويقربون الفضلاء، ويقدرّون العلماء، ولا يضمنون ببذل جهودهم في بناء المدارس، وتأسيس المعاهد العلمية، وفي إعمار المساجد^(١)، ونشر الدين والعلم والمعرفة الإسلامية في البلاد.

قدم محمد بن عمر بن الحسين فخر الدين الرازي وكان فقيها شافعيًا إلى الملك الغوري غياث الدين في فيروز كوه، مفارقًا الملك بهاء الدين سام الغوري ملك باميان، فأكرمه، وبالغ في إكرامه، وبنى له مدرسة في مدينة هرات بالقرب من الجامع الكبير، ومدّها بالأموال، فقصدته كثير من الفقهاء والعلماء من مختلف البلاد^(٢).

وقد شيدت الأميرة "ماه ملك" ابنة غياث الدين محمد سام الغوري مدرسة "شاه مشهد" في عرجستان بولاية بادغيس في غرب أفغانستان^(٣)، كما بنت زوجته مدرسة في مدينة غزنة، وقام غياث الدين أبو الفتح محمد سام الغوري بتشييد مسجد كبير بجوار نهر "هرى رود" لم يبق منه إلا مناره التاريخي الذي يشتهر "منار جام" والذي يقف شامخًا حتى اليوم.

التدين ورسوخ العقيدة

كان الغوريون يتصفون بالتدين الشديد، ورسوخ العقيدة الإسلامية الصحيحة، يحكمون بالعدل بين الناس وفقًا للشريعة الإسلامية الغراء، وكان القاضي في غزنة يحضر إلى دار شهاب الدين الغوري، ويحضر معه الحاجب، وأمير الدار وأمير التربة، فيقومون بتنفيذ ما يحكم به القاضي وما يصدر من الأحكام الشرعية دون التمييز بين الشريف والوضيع^(٤).

١ - ابن الأثير: نفس المصدر، ٩: ٢٦٠.

٢ - ابن الأثير: نفس المصدر، ٩: ٢٤٧.

٣ - مجلة هنر ومردم، ص ٢٦، السنة: ١٥، العدد: ١٧٣، مقال للأستاذ عبد الحي حبيبي، إيران.

٤ - ابن الأثير: نفس المصدر، ٩: ٢٧٣.

وكان العلماء يحضرون في بلاطه فيتكلّمون في المسائل الدينية والفقهية وغيرها، وكان فخرًا الدين الرازي قد وعظ في داره يوما فقال: "يا سلطان! لا سلطانك يبقى، ولا تلبيس الرازي، وأن مردنا إلى الله"^(١) فبكى شهاب الدين الغوري بكاء شديدا حتى رحمه الناس لطول بكائه وكثرته.

الانقضاء على الملاحدة

إن الغوريين قد قاموا بتطهير البلاد من دعاة الإسماعيلية وأتباعهم فقد قام شهاب الدين الغوري على الإسماعيلية عندما وصل بجيشه المحارب إلى قرية في منطقة قهستان كان أهلها من أتباع الإسماعيلية فأصدر أمره الصارم بقتل كل المقاتلين، وينهب أموالهم، وسبي نراريهم، وقام بتدمير القرية وتخريبها، فجعلها خاوية على عروشها، ثم حاصر مدينة "كناباد" وكان أهلها من أتباع الإسماعيلية، فأخرجهم، وسلم القرية إلى بعض الغوريين، وأقام بها الشعائر الإسلامية^(٢).

وفي سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م نزل علاء الدين محمد بن علي الغوري بأمر من شهاب الدين الغوري على مدينة "قايين" وكانت الإسماعيلية وضيق على أهلها، ثم صالح أهلها على ستين ألف دينار، ثم رحل إلى حصن "كاخك" واستولى عليه، وأمر بقتل المقاتلين، وبسبي الذرية^(٣)، وقفل عائدا إلى "فيروز كوه" عن طريق هرات.

الإسماعيليون أو الحشاشون لم يقدر لهم أن يبلغوا مبلغ الغوريين أو الغزنويين، ومن العيب أن نحاول تفصيل الحديث عن هؤلاء الإسماعيليين أو الحشاشين ولكن يجب الإشارة إلى خطرهم على المذاهب الإسلامية السنيّة، ومن هنا كان انقضاء الغزنويين والغوريين ومن بعدهم انقضاء السلاجقة على هؤلاء الملاحدة شديدا وضروريا في الوقت نفسه. وقد جعل الغوريون أسماءهم موهوبة بهذا الانقضاء.

الغوريون وشاعرهم النظامي

والأمير حسام الدين أبو الحسن علي بن مسعود الشنسبي من الغوريين الذين كانت عاصمتهم باميان وهو الذي قد التحق النظامي العروضي السمرقندي في أيامه بخدمه الغوريين، ومدحهم لمدة خمس وأربعين سنة، حتى ألف كتابه القيم جهار مقاله "المقاتلات الأربع" وأهداه إليه، فخلد بذلك

١ - ابن الأثير: نفس المصدر، ٩ : ٢٧٤.

٢ - ابن الأثير: نفس المصدر، ٩ : ٢٥٤.

٣ - ابن الأثير: نفس المصدر، ٩ : ٢٦٣.

اسمه ، واسم ممدوحه ، وأسماء الغوريين جميعا ، وبخاصة ملوك آل شنسب . وفيما يلي قصة النظامي العروضي السمرقندي ومدحه للغوريين.

كتاب جهار مقاله "المقالات الأربع" الذي نقله إلى العربية الدكتور عبد الوهاب عزام، والدكتور يحيى الخشاب من أهم الكتب المنشورة التي تم تأليفها في العصر الغوري، فقد كان مؤلفه ناثرا وشاعرا مداحا التحق بخدمتهم مدة طويلة حتى قام بتأليف هذا الكتاب. وله بالإضافة إلى هذا الكتاب عدة مثنويات كما يقول عوفي في كتابه لباب الألباب، لم يبق منها أي شئ، وقد عاش حياته بين بلخ وهرات ونيسابور وورساد "ولاية بلاد الغور" مادحا الغوريين ناثلا منالهم، وقد وهبه ملك الجبال قطب الدين محمد بن عز الدين حسين الغوري خمس منجم الرصاص في "ورساد" من عيد الفطر إلى عيد الأضحى عندما أنشد في مجلسه خمسة أبيات من الشعر مرتجلا نالت إعجابه^(١).

يقول النظامي العروضي السمرقندي الذي كان ينتمي إلى الغوريين^(٢) إن أسماء ملوك الغور آل شنسب بقيت خالدة بأشعار كل من أبي القاسم الرفيعي، وأبي بكر الجوهرى، ونظامي العروضي، وعلي الصوفي^(٣) وغيرهم من الشعراء النابهين الذين مدحوا الغوريين بمدائحهم الخالدة. والنظامي العروضي السمرقندي من شعراء القرن السادس الهجري، ومن خواص الشعراء الذين مدحوا ملوك آل شنسب الغوريين، وقد قضى معظم حياته في خدمتهم، وكان مرافقا للسلطان علاء الدين الغوري في الحرب التي دارت بينه وبين السلطان سنجر السلجوقي في صحراء "أوبه" على حدود هرات سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢م، وقد اختفى العروضي في مدينة هرات عندما منى ممدوحه الغوري بالهزيمة.

٢- الغزنويون

وإذا تركنا الحديث عن العصر الغوري طلع علينا عصر جديد هو العصر الغزنوي الذي تحدث العلماء والمؤرخون عنه بإسهاب، ويأتي بعده العصر السلجوقي الذي كان له الفضل في تأسيس المدارس النظامية المشهورة، وهذه الأسر الثلاثة هي التي انقسمت فيما بينها أفغانستان، أو تعاقب عليها حكم هذه الأسر الحاكمة، كان حكم الأسرة الغورية في العصر الإسلامي امتدادا لحكمها قبل الإسلام، ثم الغزنويون الذين نشأت دولتهم بسرعة فائقة، فاقت في حداثها كثيرا من الدول المتعاقبة في

١ - النظامي العروضي: نفس المصدر، ص ٦٠ - ٦١.

٢ - حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ٤: ٤٧٩.

٣ - النظامي العروضي: نفس المصدر، ص ٣٦.

المنطقة، كذلك نشأت الدولة السلجوقية بسرعة فائقة فاقت في سرعتها وحدتها نشأة الدولة الغزنوية، كما دام بقاؤها ونفوذها واتساعها فترة طويلة زادت على ما استغرقت الدولة الغزنوية، وقد فاقت الدولة الغورية الغزنوية والسلجوقية في سرعة الانتشار والاتساع وطول البقاء حيث اتسعت رقعة الدولة في كل من خراسان والهند، واستمر سلطانهم في بلاد الهند إلى أوائل الاستعمار الإنجليزي للهند.

الحركة الأدبية في هذه الحقبة

وقد هيأت هذه الدول المتعاقبة على الحكم في أفغانستان لحركة أدبية وفكرية واسعة، بحيث يمكن أن يعد هذا العصر - على الرغم مما كان فيه من انقسام وتنافر وتناحر - أحفل العصور الأدبية، العربية والإقليمية والمحلية، ويكفي أنه ظهر في هذا العصر أشهر العلماء والأدباء من أمثال الإمام فخر الدين الرازي، والنظامي العروضي السمرقندي، وقد خدم كل منهما في العصر الغوري، والبيروني والعنصري، وقد خرما في البلاط الغزنوي، ونظام الملك، والخيام اللذان ينتميان إلى العصر السلجوقي.

ويهمنا هنا الجانب الأدبي، وما لقي الأدب في هذا العصر من تشجيع ورواج، إذ كان كل حاكم من حكام الدول الثلاث يختار في حاشية بلاطه جماعة من الأدباء والشعراء الممتازين، ليتناقس بهم أمراء الدول الأخرى وحكامهم، وبذلك ظهر في بلاط كل واحد منهم أدباء ممتازون يديرون شؤون الدولة، وشعراء ممتازون يسجلون ما يقوم به الحكام من الأعمال والبطولات.

فعند الغوريين نجد منهج الدين عثمان بن السراج الدين الجوزجاني صاحب طبقات ناصري الذي التحق كأبيه وجده بخدمة الغوريين^(١)، والنظامي العروضي السمرقندي صاحب كتاب جهار مقالة "المقالات الأربع" الذي التحق بخدمة الغوريين ملوك الجبال، وبقي في خدمتهم مدة خمس وأربعين سنة^(٢). وفخر الدين الرازي الذي كان إنتاجه الأدبي كبيرا، وقد أهدى أحد كتبه إلى السلطان غياث الدين الغوري وهو اللطائف الغياثية^(٣)، وأهدى كتابا آخر له إلى السلطان بهاء الدين الغوري اسمه البراهين البهائية^(٤)، وشاعر الحب والجمال متى بن عباس بن عرم بن خليل غوريا

١ - تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، ص ٥٩٥، الترجمة العربية.

٢ - نفس المرجع، ص ٤٢٥، النظامي العروضي، نفس المصدر، ص ١٣.

٣ - عتيق الله بجواك: غوريان، انجمن تاريخ أفغانستان، كابل، ١٣٤٥هـ ش، ص ٢٠٢.

٤ - عتيق الله بجواك: المرجع السابق، ص ٢٤٢.

خيل صاحب كتاب الحب الإلهي^(١)، والشيخ أسعد بن محمد السوري "الغوري" الذي رثى الأمير محمد السوري "الغوري" عندما مات في أسر السلطان محمود الغزنوي^(٢). ومن شعراء البلاط الغوري أيضاً خالد بن الربيع الذي كان معاصراً للشاعر المشهور الأنوري الذي كان بدوره معاصر للغوريين إلا أنه لم يخدم في بلاطهم.

مكانة الأدب عند الغزنويين

ونجد البلاط الغزنوي وقد نما فيه العلم والأدب، ونضج فيه البحث العلمي، نبع فيه الباحثون، إذ عطايه كانت كفيلاً بدفعهم إلى الابتكارات والإبداعات في فنون العلم والأدب. إن عظمة البلاط الغزنوي تبدو واضحة حين نراه يضم البيروني المتخصص في كل أنواع العلوم تقريبا، والعنصري الشاعر الذي لقب بملك الشعراء، والثعالبي، والبيهقي، والبستي، وأضرابهم، فتتسع روعة الأدب في أيام محمود الغزنوي إقليميا وعربيا، رغم عدم تذوقه، أو عدم تقديره للأدب^(٣). ومع هذا فقد كانت قصور الغزنويين تزدان بمجموعة كبيرة من الشعراء والأدباء والعلماء والمفكرين وأهل الفضل الذين أتوا إلى غزنة في وسط الهضاب الأفغانية العالية المطلة على سهول الهند الفسيحة التي نشر فيها الإسلام وجلب منها الأموال، وصرفها على هؤلاء العلماء والشعراء والأدباء، فكان ينفق على العلماء وحدهم ما يعادل مائتي ألف من الجنيهات كل عام^(٤).

السلامة والمدارس النظامية

ونجد البلاط السلجوقي يجذب إليه عديدا من العلماء والأدباء والكتّاب، فقد ازدهرت في هذا العصر دراسة العلوم الدينية والعربية والتصوف في المدارس النظامية تحت حماية البلاط السلجوقي في خراسان وغيرها، فنرى في البلاط السلجوقي الوزير الكندري المعروف بعميد الملك، وكان من علماء العربية وشعرائها^(٥)، والوزير نظام الملك صاحب سياست نامه وكلا الوزيرين قد قتلا قتلة شنعاء، والشاعر الرحالة ناصر خسرو صاحب سفر نامه وصاحب ديوان شعر مطبوع^(٦).

- ١ - محمد داود هوتك: نفس المصدر، ص ٢٢.
- ٢ - بهادر شاه: نفس المصدر، ص ٣٧٧-٣٧٨.
- ٣ - الدكتور علي الشابي: الأدب الفارسي في العصر الغزنوي، دار النشر، تونس، ١٩٦٥م، ص ٤٠.
- ٤ - المرجع السابق، ص ٤٢.
- ٥ - ابن الأثير: نفس المصدر، ٨: ٩٦-٩٧.
- ٦ - براون: تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، ص ٢٦٩، الترجمة العربية.

ومن هنا يخيل إلى الباحث أن كل حاكم من حكام البلاطات الثلاثة لم يكن يشغله إلا أن يقوم بجمع الشعراء والأدباء والعلماء والكتّاب يعيشون في بلاطه ويكونون بطانته ، فقد اهتم كل أمير أو ملك بشعراء بلاطه وكتابه وعلمائه ، وفي المقابل اهتم الشعراء والأدباء بالشعر والأدب والعلم ، وإدخال كل ما يمكن إدخاله من ضروب الابتكارات والإبداعات والتنميقات ، ولا غرابة في ذلك فهم يعيشون في القصور وبين الحكام والأمر معيشة مترفة ، فكان من الطبيعي أن يؤثر ذلك في الحياة الأدبية والعلمية والفنية.

ومهما يكن فإن الدول الثلاث الغورية والغزنوية والسلجوقية في أفغانستان قد سيطرت عليها نهضة أدبية واسعة ، وقد اقترنت باللغة العربية وآدابها بجانب اقترانها باللغات الإقليمية وآدابها المختلفة التي نشأت وترعرعت في ظل اللغة العربية. ويجب ألا ننسى ما كان من تشجيع حكام الولايات والأقاليم للحركات الأدبية والعلمية في مراكزهم ، وكان كثير منهم أدباء يتذوقون الأدب ، وشعراء ينشدون الشعر ، وكتّاب يكتبون النثر ، وفي الحق أن حكام هذه الدول والولايات والأقاليم في أفغانستان قد شجعوا الأدباء والشعراء والعلماء وأهل الفضل والمعرفة بكل وسيلة من وسائل التشجيع .

ملاحظة جديرة بالإشارة

أود الإشارة إلى أنني قد تحدثت عن الغوريين ودورهم الأدبي بشيء من الإسهاب وذلك نظراً لعدم اهتمام المؤرخين بدورهم الأدبي والسياسي ، بعكس الغزنويين والسلاجقة الذين تحدث المؤرخون والدارسون من الشرقيين والمستشرقين عن تاريخ هؤلاء الغزنويين والسلاجقة بكثير من التوسع والتفصيل ، فليعذرني القارئ الكريم إن كنت قد أسهبت الحديث في جانب ، وأوجزته في جانب آخر.

المقارنات والموازنات

النسبة والنسب

تنسب الدولة الغورية إلى قبيلة من القبائل الأفغانية العريقة التي كانت تقطن الأودية السحيقة من بلاد الغور في وسط أفغانستان منذ العصور القديمة ، وحتى الآن ، وقد اتخذت من الإسلام نبراساً لها ومنهجاً ، سارت على هداه إلى النهاية ، وقد ارتفع شأن الدولة الغورية إلى الأوج أيام السلطان محمد الغوري الذي تلقب بألقاب متواضعة تدور حول المحور الإسلامي من أمثال شهاب الدين ، ومعز الدين وغيرهما ، وكان أبوه قطب الدين محمد يشتهر في الأوساط السياسية بملك الجبال . وتنسب الدولة الغزنوية إلى مدينة غزنة الأفغانية التي تشرف على السهول الهندية من بين وسط الهضاب الأفغانية العالية ، وقد ارتفعت الدولة الغزنوية إلى الأوج أيام السلطان محمود الغزنوي

الذي لم يكن في الأصل - كما يقول المؤرخون - إلا ابناً لعبد كان مملوكاً لعبد آخر، ولكن الإسلام الذي اعتنقه أبوه سبكتكين قد سوى بينه وبين غيره من المسلمين، ورفع من منزلته وقدره حتى لقب بألقاب كثيرة وعظيمة من بينها يمين أمير المؤمنين، وبطل الإسلام، ومحطم الأصنام، وغير ذلك من الألقاب الرفيعة التي اكتسبها بفضل همته وحسن قيادته للدولة الغزنوية.

التداخل والتزامن

تاريخ الغوريين في أفغانستان مرتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ الغزنويين، وتاريخ الغزنويين والغوريين وثيقة الصلة بتاريخ السلاجقة والخوارزميين ويرتبط بهما أشد الارتباط، نظراً لتعاقب هذه الأسر الأربع على الحكم فوق الأرض الأفغانية التي توافدت عليها أقوام وحكام من شتى الأطراف، فلا بد لمن يريد أن يستقصى تاريخ الغوريين في أفغانستان من أن يرجع إلى تاريخ هذه السر كلها، وبخاصة إلى تاريخ الغزنويين مقارنة بتاريخ الغوريين في كل من البلاد الأفغانية والهندية، وما ترك كل من البيتين الغوري والغزنوي من الآثار الأدبية والثقافية والعلمية الباقية في كل من أفغانستان والهند، وسيجد الدارس أثناء دراسته لتاريخ هذا الجزء من العالم المزايا المشتركة التالية:

- ١- التشابه الشديد في الأسماء والألقاب بين الأمراء والحكام، والمحور الإسلامي هو الأساس الوحيد في الأسماء واتخاذ الألقاب والتلقب.
- ٢- التمازج الواضح، والاختلاط العميق في الحدود المصطنعة بين الدولتين الغورية والغزنوية، والتداخل الإقليمي والجغرافي بينهما بحيث نراه يتسع ويضيق تبعاً لقوة الدولة وضعفها في المجالين السياسي والعسكري.
- ٣- التداخل الزمني بحيث كانت الدولة الغورية تحكم فيروز كوه وما جاورها من بلاد الغور، وفي الوقت نفسه كانت الدولة الغزنوية تحكم غزنة وما جاورها من البلاد، وكل من فيروز كوه وغزنة من المدن الأفغانية المشهورة، ولكنهما كانتا تعيشان في وقت واحد تحت حكم أسرتين من الأسر الحاكمة في أفغانستان ذلك العصر.

بؤاد العدواة

بدأت بؤاد العدواة والبغضاء، ومظاهر الكراهية والانتقام بين البيتين الأفغانيين الغوري والغزنوي تظهر في أفق السماء في أفغانستان ذلك العصر منذ أن شنَّ القائد المغامر سبكتكين الغزنوي هجومه الفاشل على الدولة الغورية وكان حاكمها حين ذاك الأمير محمد سوري^(١)، وفي سنة

١ - بهادر شاه: نفس المصدر، ص ٣٧٥.

٤٠١هـ/ ١٠١٠م كما يقول ابن الأثير^(١)، أو في سنة ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م كما يقول الجوزجاني^(٢) هاجمها ابنه السلطان محمود الغزنوي عن طريق زمينداور وبست، وتمكن من الاستيلاء عليها وأسر أميرها محمد سوري الغوري الذي مات في الطريق^(٣) قبل الوصول إلى غزنة، ثم تجددت هذه العداوة والكراهية في سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م عندما قام بهرام شاه بقتل زوج ابنته ملك الجبال قطب الدين محمد بن الحسين^(٤) الغوري، ثم ازدادت العداوة بين البيتين سوءاً وتوترا عندما قام بهرام شاه نفسه في سنة ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م بقتل سيف الدين الغوري بعد أن سؤدوا وجهه، وأركبوه بقرة، وطافوا به في شوارع غزنة، وأهانوه، وبالغوا في الاستهزاء به، وقالوا فيه أشعارا مشينة يهجونه ويستهزءون به، وبأهله، ثم بعد هذه الإهانات المنافية للإسلام والتقاليد والعادات صلبوه، وصلبوا معه وزيره السيد مجد الدين الذي لم يرتكب ذنبا، ولما وصلت أخبار هذه الأفعال الشنيعة إلى علاء الدين بن الحسين الغوري قال شعرا معناه: إن لم أقلع غزنة في مرة واحدة فلست الحسين بن الحسين^(٥)، فأقبل هذا الغوري الغاضب الثائر بجيشه على مدينة غزنة، وأنزل عليها سخطه الشديد، ودمرها، وخرّب قصور الغزنويين^(٦).

وهكذا بدأت وعلى يد الغزنويين أنفسهم بوادر العداوة التي أنزلت عليهم، وعلى أهل غزنة الويل والهلاك، وعلى مدينة غزنة عروس البلاد الدمار والخراب، وكان سببا رئيسيا للقضاء على الدولة الغزنوية في أفغانستان وإلى الأبد، ولم يبق للغزنويين أثر غير مديحهم^(٧).

كم بنى محمود من قصور تطاول القمر علوا
لا ترى منها لبنة واحدة، وبقي مديح العنصري

الطابع الإسلامي

كان إسلام الغوريين يغلب عليه الطابع العملي والتطبيقي، فكانوا يجمعون بين العقيدة والعمل، بمعنى أنهم كانوا يجمعون في إسلامهم الجانب القلبي والفكري والجانب العلمي والتطبيقي،

١ - ابن الأثير: نفس المصدر، ٧: ٢٥٣.

٢ - بهادر شاه: نفس المصدر، ص ٣٧٦.

٣ - ابن الأثير: نفس المصدر، ٧: ٢٥٣.

٤ - ابن الأثير: نفس المصدر، ٩: ٢٢.

٥ - ابن الأثير: نفس المصدر، ٩: ٣٣.

٦ - النظامي العروضي السمرقندي: نفس المصدر، ص ٣٧.

٧ - النظامي: المرجع السابق، ص ٣٦.

وكانوا بالإضافة إلى ذلك أقل اهتماما باقتناء اللذات والمتع الزائلة، وبالانغماس الفاحش في شرب الخمر، والإسراف في تناولها بلا حدود، فهم أكثر تديّنا من الغزنويين، لعل سبب ذلك يرجع إلى أن الحياة، والخلافات المذهبية لم تطغ على خلقهم وطبيعتهم، فملك منهم الإسلام قرارة النفوس والأرواح، وقرارة الجوارح والأبدان، ومع هذا يجب ألا ننسى في هذه المقارنة ما قام به الغزنويون من خدمات عظيمة للإسلام وأهله.

أما الغزنويون فكان يغلب على إسلامهم الطابع القلبي كإسلام غيرهم من الملوك والأمراء والحكام في تلك الفترة، فقد بالغ الغزنويون في اقتناء اللذة والمتعة بأنواعها، وفي الانغماس اللامحدود في احتساء الخمر، والإسراف فيها حتى مع أبنائهم، ووزرائهم، ومع وجوه القوم منهم، قال البيهقي ما معناه: ولما ارتاح السلطان مسعود مال إلى الشرب والطرب، فنفخت الأبواق، وضربت الطبول، وأديرت كؤوس الشراب، وعلت أصوات أكثر من ثلثمائة شخص من المطربين، والنساء اللاتي يرقصن ويضربن الدفوف^(١).

بين الحنفية والشافعية

كان الغوريون يعتقدون مذهبين من المذاهب الإسلامية، وهما المذهب الحنفي، والمذهب الشافعي، فكان غياث الدين الغوري شافعيًا، وكان أخوه شهاب الدين حنفيًا، الأمر الذي يدل على حرية العقيدة في اعتناق المذاهب واختيارها بحرية، ولم يكن بينهم من يتعصب لمذهب على حساب المذاهب الإسلامية الأخرى التي كانت سائدة في أفغانستان حينذاك.

أما الغزنويون فكانوا يترددون بين المذهبين الحنفي والشافعي، فقد تحول السلطان محمود الغزنوي - فيما يقوله ابن خلكان - في سذاجة من المذهب الحنفي إلى المذهب الشافعي نتيجة لمناظرة جرت أمامه بين الحنفية والشافعية، يقال إن الشيخ القفال لعب فيها الدور الرئيسي لكونه شافعيًا، وقد أنكر ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة هذه القصة الهزلية من أساسها، ويقول إن محمودا كان عالما من علماء الفقه، وله مصنف في فقه الحنفية^(٢).

١ - أبو الفضل محمد بن حسين البيهقي: تاريخ البيهقي، ترجمة إلى العربية يحى الخشاب وصادق نشأت،

مكتبة الإنجلو المصرية، دار الطباعة الحديثة، القاهرة، سنة ١٩٠٠ ص ٢٦٠ - ٢٦١.

٢ - الشابي: نفس المصدر، ص ٣٨.

الانقراض على المنحرفين

حارب كل من ملوك البيت الغوري والبيت الغزنوي المنحرفين عن الإسلام، فانقض الغوريون على الإسماعيلية في كل مكان من أرجاء خراسان، ومحقوا الكفر والإلحاد، ومذاهب التشيع، وطاردوا دعاة الإسماعيلية وأتباعهم، ولم يبق في البلاد الغورية أحد من هؤلاء الدعاة المنحرفين المفسدين. قال ابن الأثير: "وكان قد صار في بلادهم جماعة من دعاة الإسماعيلية وكثر أتباعهم فأخرجهم "أى أخرجهم سيف الدين الغوري" من تلك الديار جميعا"^(١). كان الغوريون يأمرؤن بقتل المقاتلين منهم ونهب أموالهم، وسبى ذراريهم، وتدمير قراهم، وتنفيذ شعائر الإسلام وإقامة الصلاة في قراهم^(٢).

وانقض الغزنويون على الشيعة والقرامطة والملاحدة وغيرهم من الفرق الضالّة، والنزعات الإلحادية التي استطاعوا تعقبها والقضاء عليها، وتمكنوا بالإضافة إلى ذلك صد الزحف الشيعي الذي انطلق للاستيلاء على مركز الخلافة نفسها، لذلك حارب الغزنويون القرامطة، وجدوا في القضاء عليهم وعلى غيرهم من الفرق المنحرفة، وكثيرا ما كانوا يتخذون هذه التهمة ستارا للتكيد بالمفكرين الذين ينزعون إلى الفلسفة، وأعمال الرأي، وإلى القرامطة المبطلين الذين كانوا مصدر رعب وفتح للشعوب الإسلامية من أهل السنة.

الفتوح الإسلامية

قام الغزنويون بشن هجمات إسلامية لنشر الإسلام بين الهندوس في ربوع الهند الفسيحة، وقد بلغ عدد غزواتهم أيام محمود الغزنوي في تلك البلاد إلى سبع عشرة غزوة في مدى سبعة وعشرين عاما، وكان من نتيجة هذه الغزوات المظفرة أن خضع لهم شمال الهند، وكانت لاهور قاعدتهم الأساسية التي انتقلوا إليها في نهاية حياتهم السياسية تحت ضغط تزايد قوة الغوريين الحربية والسياسية.

قام الغوريون كذلك بشن حروب إسلامية منتصرة لنشر الإسلام في ربوع الهند، وقد بلغ عدد حروبهم الإسلامية في بلاد الهند أيام السلطان شهاب الدين محمد الغوري إلى أحد عشر هجوما إسلاميا موفقا حطم في بنارس وحدها أصنام ألف معبد، وقد تأسست بعد ذلك دول إسلامية حكمت الهند أجيالا، وكانت مدينة دهلي قاعدتهم الأساسية في أعماق الهند. فإذا كان محمود الغزنوي رمز

١ - ابن الأثير: نفس المصدر، ٩ : ٧٤.

٢ - ابن الأثير: نفس المصدر، ٩ : ٢٥٤ و ٢٦٣.

الفتوحات الإسلامية في شمال الهند فإن نده السلطان محمد الغوري رمز هذه الفتوحات الإسلامية في أعماق الهند، وإن كان الأول أكثر هجوماً من الثاني، وفي كل خير.

الطلب والعودة والسلوك

طلب أهل غزنة من مليكهم المطرود بهرام شاه الغزنوي العودة إلى عرشه في غزنة بهدف مجرد التخلص من الغوريين الذين أحسنوا السيرة في أهل غزنة، وخلعوا عليهم خلعا نفيسة، ووصلوهم بصلات ثنية، فسار عائداً إليهم، وقبض على الملك الغوري سيف الدين وأهانته، واستهزأ به، وقال فيه الشعراء والشاعرات أشعاراً هجائية فاحشة، ثم صلبه^(١) هو ووزيره السيد مجد الدين، وكثيراً غيرهما من أعيان الدولة الغورية في غزنة. وطلب أهل هرات عودة الغوريين ومجيئهم إلى هرات لمساعدتهم في التخلص من مظالم الأتراك. وكان أهل هرات قد كاتبوا ملك الغور الحسن بن الحسين بشأن المجيء إليهم لإنقاذهم من الأتراك، فلما أتاهم غازيا، خرجوا إليه، واستسلموا، وأطاعوه، فأحسن إليهم وأفاض عليهم النعم^(٢). ولم يظلم الغوريون في ذلك أحداً من أهل هرات، أو من الأتراك الذين ظلموا الناس من أهل هرات وغيرها من المدن الأفغانية.

اللغة المتداولة

كانت اللغة المتداولة في بلاد الغور هي اللغة الأفغانية "البشتوية" بالإضافة إلى اللغة الدرية "الفارسية"، وإن كان الشعراء يمدحون الملوك الغوريين بالدرية أيضاً، وأحسن مثال لذلك الشاعر المداح والناثر البليغ النظامي العروضي السمرقندي، وأبو القاسم الرفيعي، وأبو بكر الجوهري، وعلي الصوفي وغيرهم كثيرون. واللغة المتداولة في مدينة غزنة هي اللغة الدرية "الفارسية" التي كانت سائدة في دواوين الدولة الغزنوية، وفي أيام الوزير الميمندي "الميوندي" تحول ديوان الإنشاء إلى اللغة العربية. أما لغة أكثر الأقاليم المحيطة بمدينة غزنة هي اللغة الأفغانية "البشتوية" ومع هذا فإنني لم أتمكن من العثور على شاعر مدح سلاطين غزنة بهذه اللغة القومية للأفغان.

الأدب والثقافة

كان اهتمام الغوريين ينصب على الآداب البشتوية، والدرية والتركية الشرقية بجانب اهتمامهم الخاص بالآداب العربية، فكان دينهم الإسلامي يتطلب منهم أن يشجعوا الأدب العربي، وأن يحافظوا عليه، والثقافة السائدة في الدول الإقليمية المتداخلة والمحيطة بأفغانستان كانت تطلب

١ - ابن الأثير: نفس المصدر، ٩ : ٣٣.

٢ - ابن الأثير: نفس المصدر، ٩ : ٢٨.

منهم الاهتمام بالأدب الدرّي "الفارسي" وتشجيعه، وهم مطالبون بجانب هذا وذاك بالمحافظة على الأدب الأفغاني ولغته البشتوية التي هي همزة الوصل بينهم وبين شعبيهم الغوري، وهي بالتالي وسيلة التعبير عما يجول بخواطرهم من الأفكار، فالآداب الأفغانية في العصر الغوري بأصولها الأربعة العربية، والبشتوية، والدرية، والجغتائية آداب إسلامية اهتم بها الغوريون ورعوها دون التمييز بينها أو التمايل إلى فرع دون فرع.

وكان اهتمام الغزنويين الأول منصبا على الأدب الدرّي "الفارسي" بالدرجة الأولى وقبل كل أدب آخر، يأتي بعد ذلك اهتمامهم بالأدب العربي، ولا شيء يذكر بالنسبة للأدبين الأفغاني "البشتوني" والجغتائي "التركي" وإن كان أبو النصر محمد بن عبد الجبار العتبي يتحدث في كتابه القيم تاريخ اليميني عن الأفغان "البشتون" ويذكرهم لحيان وآخر، وهو بخلاف تاريخ البيهقي لأبي الفضل محمد بن حسين البيهقي الذي لا يهتم كثيرا ولا قليلا بتاريخ القبائل الأفغانية ولغاتها وآدابها الإقليمية رغم أن حروف البشتو الثمانية الخاصة بأصواتها الخاصة وضعت في العصر الغزنوي بإشارة من أحمد بن حسن الميمندي "الميوندي" وزير السلطان محمود الغزنوي، جاء ذلك في خير اللغات لمؤلفه قاضي خير الدين. ولاهتمام الغزنويين بالأدب الدرّي "الفارسي" صارت غزنة في أيامهم قاعدة للإشعاع الأدبي والثقافي، وازدهر الأدب الدرّي بفنونه وألوانه المختلفة ازدهارا عظيما يتناسب مع عظمة الدولة الغزنوية، قام الغزنويون باقتناص الأدباء والشعراء والمفكرين ليستأثروا بهم وحدهم في غزنة، فمما الأدب الدرّي في ظلهم، وتحت رعايتهم، فارتقت الحياة الأدبية وتطورت، وبجانب جل اهتمامهم بالأدب الدرّي وأدبائه كان لهم اهتمام خاص بلغة القرآن الكريم، والحديث الشريف، والأدب العربي حيث نبغ في عصرهم عديد من المفسرين والمحدثين والنحاة والفلاسفة والمؤرخين، وقد فاقوا بذلك الغوريين الذين ورثوهم فيما بعد، وورثوا حضارتهم الإسلامية وساروا بها إلى الأمام.

اقتناء الكتب

قام الغوريون بالهجوم الانتقامي على غزنة وأشعل فيها النار التي أتت على كل ما بناها الغزنويون من العمارات والمباني، وأخرت عمارات محمود ومسعود وإبراهيم، انتقاما للأميرين الشهيد الغوريين الذي قتلها الغزنويون، ففي الوقت الذي تأتي فيه النار بكل ما في عروس البلاد غزنة من العمران لم يصب الأدب بسوء، بل بالعكس من ذلك كان الأدب وكتبه محل تقدير الغوريين، بحيث كانوا يشترون كتب الأدب ودواوين الشعر بالذهب، ويخبئونها في خزائن كتبهم^(١). أما

١ - النظامي: نفس المصدر، ص ٣٧، وغيره من المراجع الأدبية.

الغزنويون فإنهم حينما استولوا على الري أيام محمود الغزنوي أحرقوا كثيرا من كتب الفلسفة والحكمة والنجوم والمنطق التي لا يكفي لحملها أقل من أربعمئة جمل. ويضيف ابن الأثير أن محمود الغزنوي لما ملك الري صلب كثيرا من أصحاب الباطنية، ونفى المعتزلة إلى خراسان، وأحرق كتب الفلسفة ومذاهب الاعتزال والنجوم وأخذ من الكتب ما سوى مائة جمل^(١).

شعراء البلاطين

الشعراء الذين كانوا يعيشون في البلاط الغزنوي أكثر من أربعمئة شاعر من الشعراء النابهين، يأتي في مقدمتهم العنصري، والعسجدي، والفرخي، والمظفري، والمنوجهري، والمسعودي، والسنائي الذين خلدوا أسامي ملوك الغزنوية^(٢). والشعراء الذين كانوا يعيشون في البلاط الغوري في كل من "فيروز كوه" و "باميان" ثم في عروس البلاد "غزنين" قد توجد بلا شك عظمة الدولة الغورية الأدبية، وإن كانوا أقل عددا من الشعراء الذين أحاطوا بالبلاط الغزنوي، ويأتي في مقدمة شعراء البلاط الغوري النظامي العروضي السمرقندي، وأبو القاسم الرفيعي، وأبو بكر الجوهرى^(٣)، وخالد بن الربيع^(٤)، وفخر الدين مبارك شاه^(٥)، والشيخ أسعد بن محمد السوري "الغوري" وشكارندوي بن أحمد الغوري، وملك يار غرشين^(٦)، وغيرهم من الشعراء النابهين الذين خلدوا أسماء ملوك الغورية.

الطلب والرفض

أرسل السلطان محمد الغزنوي إلى أمير خوارزم مأمون خطابا يطلب منه أن يرسل إلى مجلسه كوكبة من رجال العلم والأدب والفضل الذين يقومون بخدمة العلم والمعرفة والأدب في بلاطه، وطلب من أمير خوارزم أن يحقق له هذه الرغبة^(٧)، فتوجه عدد منهم إلى مجلسه، ولَبُوا الدعوة وحققوا الرغبة، أما ابن سينا فقد آثر الرفض خوفا من سطوة السلطان وجبروته.

وأرسل السلطان علاء الدين الغوري ملك الجبال إلى الملك طوطي أن يرسل إليه الشاعر "الأنوري" الذي يعتبر في نظر بعض النقاد ندا لكل من الفردوسي والسعدي الشيرازي، ولكنه رفض

١ - ابن الأثير: نفس المصدر، ٧: ٣٣٥.

٢ - النظامي: نفس المصدر، ص ٣٥-٣٧.

٣ - النظامي: نفس المصدر، ص ٣٦ و ١٢٦.

٤ - براون: نفس المصدر، ص ٤٨٣.

٥ - ابن الأثير: نفس المصدر، ٩: ٢٨٤.

٦ - محمد أمان صافي: الأدب الأفغاني الإسلامي، ص ٧٩-٨٤، الرياض، ١٤١٧هـ.

٧ - النظامي، نفس المصدر، ص ٨٤.

الذهاب إلى السلطان الغوري خوفا من انتقامه، فأرسل السلطان رسولا آخر، وطلب من الملك طوطي الذي كان يستضيف الأنوري أن يرسله إليه، ولكن الشاعر أصر على الرفض، وأقنع الملك طوطي، واعتذر للسلطان الغوري بقصيدة شعرية يقول فيها بأنه قد هجر حياة القصور، واختار عيشة العزلة.

ظاهرة الانتقال

ومن الظواهر الأدبية المهمة التي اقترنت بالدول الثلاث الغورية والغزنوية والسلجوقية أننا نجد الأدباء والشعراء والعلماء الذين ينتقلون من بلاط إلى بلاط يرفعون كتبهم ودواوين أشعارهم إلى الملوك والأمراء والحكام، ويمدحونهم في قصائدهم ويصفونهم في مؤلفاتهم، على نحو ما فعل العلامة فخر الدين الرازي الذي أهدى أحد كتبه إلى علاء الدين خوارزم شاه وسماه الاختبارات العلائية^(١) وأهدى كتابه الآخر إلى السلطان غياث الدين الغوري وسماه اللطائف الغياثية^(٢) وأهدى كذلك أحد كتبه إلى السلطان بهاء الدين الغوري، وسماه لذلك البراهين البهائية^(٣). وكما كان النظامي العروضي السمرقندي وهو نثر وشاعر ينتقل بين البلاطين الغوري والسلجوقي، وإن كان قد قضى أكثر عمره أي مدة خمس وأربعين سنة في خدمة الغوريين، وأهدى كتابه المشهور جهار مقالة أي المقالات الأربع إلى الأمير الغوري أبو الحسن علي بن مسعود، وهو أكثر الشعراء معرفة بحياة الملكية في العصر الغوري والسلجوقي في أفغانستان، وكان ينتقل بين المدن الأفغانية مثل هرات وبلخ وغيرها. والشعراء ورجال الأدب والعلم المنتقلون بين الغوريين والغزنويين والسلجوقيين والساكنين في المقدم حصرهم أو عددهم، والقليل يغني عن الكثير في مثل هذه الأحوال.

المراكز الأدبية

لقد نشطت الحركة الفكرية والعلمية في "فيروز كوه" و "غزنة" وفي غيرها من العواصم والحوضر الإقليمية، وراجت الثقافة والمعرفة، وازدهر البلاط الفيروزي والغزنوي بالعلماء والشعراء والأدباء وغيرهم من رواد المعرفة، ومن هنا ترى صدى هذه الحركة في كل من غزنة، وفيروز كوه، وهرات، وبست، وبلخ، ومرو، وباميان، وبوشنج، وبادغيس وغيرها مما كان لها أثر بالغ في زيادة الثروة الأدبية، وازدهار العلوم والمعارف.

١ - براون: نفس المصدر، ص ٦١٥، الترجمة العربية.

٢ - عتيق الله بجواك: نفس المصدر، ص ٢٠٢.

٣ - المرجع السابق، ص ٢٤٢.

١- فيروز كوه

كان القصر الفيروزي في البلاط الغوري في العاصمة "فيروز كوه" كعبة العلم والأدب يؤمها العلماء والأدباء والشعراء من مختلف الطوائف والعشائر والقبائل بلغاتهم المختلفة، ومن مختلف أرجاء أفغانستان في ذلك العصر، فكانت اللغة الأفغانية البشتوية تتعاقب في نقاء وود وصفاء مع اللغة الدرية الفارسية، وشعراؤهما يتعاقبون مع شعراء الجغتائية "التركية الشرقية" فكانت بذلك مجمع أفراد الزمان والمكان، ومطلع نجوم الأدب والفن، ومجمع أهل العلم والفضل والكرم.

٢- غزنة

حيث كانت مقرا للبلاط الغزنوي، ثم للبلاط الغوري على التوالي وبالتالي كانت مأوى للآداب والأدباء، وملجأ يشجع العلم والعلماء، ومهدا لأهل الفقه والفقهاء، ومرجعا هاما للشعر والشعراء، ولرجال الفن والفنانين، فكانت بذلك مثابة المجد الأدبي، وموسم فضلاء العصر في كل العلوم والفنون. كان عدد الشعراء فيها أكثر من أربعمئة شاعر، وعدد المساجد فيها أكثر من اثني عشر ألف مسجد عامر بالمصلين في أوقات الصلاة الخمسة. وفي غزنة في العصر الحديث مدرسة نور المدارس التي يدرس العلماء فيها العلوم الدينية والعربية على الطريقة الأزهرية.

٣- هرات

إن هرات من أهم المراكز الأدبية والعلمية على مر العصور، حيث زخرت بالمدارس والمكتبات، وبالجموع والمساجد ودور الثقافة، وبخاصة في العصر الغوري، فكانت مأوى لكثير من أهل العلم والعلماء، وبكثير من الفقهاء والأدباء والشعراء، وبعديد من الكتب النادرة، وكانت مخصصة من بين المراكز الأدبية والعلمية في أفغانستان بإخراج الفضلاء من الأدباء والشعراء والكتّاب في مختلف الفنون والعلوم والآداب. قال عنها ياقوت الحموي: "هرات مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان، محشوه بالعلماء ومملوءة بأهل الفضل والثراء". وفي هرات في العصر الحاضر مدرسة فخر المدارس الحكومية الداخلية تقوم بتدريس العلوم الدينية والعلوم العربية وفقا للمناهج العربية التقليدية القديمة، وهي تتمسك بهذه الرؤية التقليدية حتى اليوم.

٤- المروين

مرو الروذ "بالا مرغاب" ومرو الشاهجان مدينتان أو مركزان من المراكز الأدبية والعلمية في أفغانستان الخراسانية، أخرجتا كثيرا من العلماء والأدباء والشعراء الذين لا حصر لهم، والمسافة بين المدينتين أو المركزين تقدر بحوالي مائة وستين ميلا تقريبا، ومن أشهر علماء مرو الروذ "بالا مرغاب"

خالد بن عبد الملك المروزي الذي يعد من أكبر علماء الفلك في العالم الإسلامي، وقد فتحت مرو الروذ في عهد عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه^(١).

٥- بلخ

مدينة بلخ من أقدم المراكز الأدبية والعلمية في أفغانستان القديمة والحديثة وكانت تنافس عن جدارة وبقوتها الأدبية كلا من فيروز كوه وغزنة وهرات ومرو وغيرها من أمهات المدن الأفغانية في هذا العصر، حيث أصبحت سوقا نافعة للعلم والعلماء، وكعبة لرجال الأدب والشعراء، وهي تشتهر في التاريخ الأفغاني بأهم المدائن، وهي ذات تاريخ عريق في الدين والعلم والأدب، وفي التجارة والاقتصاد والسياسة.

٦- بست

بست مدينة تاريخية قديمة، حيث كانت وما تزال مركزا هاما للعلوم القرآنية والسنة النبوية، والعلوم اللغوية، وقد اتخذها علماء التفسير القرآني، والحديث النبوي، والأدب العربي، والشعر الأفغاني والعربي مقرا لهم، ومن أبرز علمائها في الدراسات القرآنية الخطابي البستي، وفي دراسات السنة النبوية ابن حبان البستي، وفي الدراسات الأدبية العربية أبو الفتح البستي، وفي الدراسات الأدبية الأفغانية أبو محمد هاشم بن زيد السرواني البستي، وفي الدراسات الشعرية الدرية أو الفارسية أبو الحسن الفرخي السيستاني الذي كان يتردد عليها كثيرا أيام الغزنويين لينال عطايهم في مدينة بست العاصمة البشتوية للدولة الغزنوية.

٧- باميان

كانت باميان عاصمة لأحد الملوك الغوريين، وهو بهاء الدين سام، وكان الإمام فخر الدين الرازي يلازم بلاطه قبل أن يفارقه إلى الملك غياث الدين الغوري في فيروز كوه ومنها إلى هرات. وكانت باميان في هذا العصر مركزا ثقافيا وأدبيا كما كانت مركزا سياسيا وتجاريا، ومأوى للعلماء والأدباء من أمثال الإمام الرازي، وأبو محمد أحميد بن الحسين الباميانى وأبو بكر محمد بن علي الباميانى. وفي باميان أقام الغوريون مدينة إسلامية باسم "غلغله"^(٢) دمرها جنكيز خان فيما دمره من المدن الأفغانية. وقبل الإسلام كانت معقلا من معاقل البوذية وبها أكبر تماثيل بوذا في العالم كله^(٣).

١ - النظامي: نفس المصدر، ص ٣٨.

٢ - بشتو - بشتو فارسي قاموس، جرآن، بشتو تولنه، كابل.

٣ - حبيبي: نفس المصدر، ١: ٦٨٥.

٨- زرنج

مدينة زرنج عاصمة سيستان أو سجستان، وقد فتحها المسلمون لأول مرة سنة ٢٣هـ في عهد عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بقيادة عاصم بن عمرو رضي الله تعالى عنه^(١)، وكانت سيستان وبخاصة عاصمتها زرنج بمثابة معهد من معاهد العلم للدراسات الإسلامية، وبخاصة لتدريس علوم الحديث الشريف والتوحيد والفقه الإسلامي، وعلوم اللغة العربية وآدابها، يؤمها طلاب العلم والمعارف الإسلامية من جميع أنحاء أفغانستان في العصرين الغوري والغزنوي، وفي مدينة زرنج تم بناء كثير من المساجد، والمدارس، والحمامات، والقصور، وأول مسجد في التاريخ الأفغاني الإسلامي تم بناؤه أيضاً في سيستان الأفغانية^(٢) وقد أخرجت زرنج عدداً ضخماً من العلماء على رأسهم دون شك الإمام أبو داؤد سليمان السجستاني^(٣). وزرنج من المراكز الأدبية والثقافية في هذا العصر، وكانت تنافس في ذلك مدينة بست على الجانب الآخر من نهر هلمند.

٩- بوشنج "بشتون زرغون"

بوشنج أو "بشتون زرغون" مركز آخر من المراكز الأدبية والعلمية في أفغانستان الإسلامية، ومن أبرز شخصياتها السياسية طاهر بن الحسين مؤسس الدولة الطاهرية في أفغانستان الخراسانية في عصر المأمون، وكان أبوه من مناصري الخلافة العباسية، وكان طاهر بن الحسين أديباً وعالماً، يهتم بالعلماء والأدباء، وشيخ الإسلام الصابوني البوشنجي، وأحمد بن الحسين الخطيب البوشنجي على رأس جماعة العلماء والأدباء في بوشنج "بشتون زرغون" الأفغانية^(٤) في هذه الفترة من تاريخ أفغانستان.

١٠- بغشور "بغ"

بغشور أو بغ مركز مهم من المركز العلمية والأدبية في البلاد الأفغانية، ولا يبدو اسم بغشور أو بغ إلا مقروناً بعلمائها الأفاضل من أمثال أبي القاسم أحمد بن إبراهيم البغشوري، والإمام أبي محمد الحسين بن مسعود بن محمد البغوي الملقب بمحي السنة، المولود في بغشور، والمدفون في مرو الروذ،

١ - الطبري: نفس المصدر، ٤: ١٨٠.

٢ - حبيبي: نفس المصدر، ١: ١٦٠.

٣ - الدكتور محمد علي البار: أفغانستان من الفتح الإسلامي إلى الغزو الروسي، دار العلم للطباعة والنشر، جدة، ١٣٤٥هـ/ ١٩٨٥م، ص ٤٩٨.

٤ - محمد علي البار: أفغانستان من الفتح الإسلامي إلى الغزو الروسي، ص ٣٦٥، والباخرزي أبو الحسن علي بن حسن بن علي، دمية القصر وعصرة أهل العصر، جزآن، تحقيق: محمد الحلو، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، ٢: ٣٤٤-٣٤٥.

وغيرهما من العلماء الأفاضل كأبي الأحوص محمد بن حيان البغوي الذي تتلمذ على يد الإمام مالك بن أنس، وعلي بن عبد العزيز شيخ الحرم، ومحدث أهل العراق أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز المرزبان البغوي، ويقول ياقوت الحموي في معجم البلدان: إن بغشور "بلدة بين هراة ومرو الروذ ويقال لها بغ أيضاً، رأيتها في شهور سنة ٦١٦هـ، والخراب فيها واضح" (١).

١١- بادغيس

بادغيس من الولايات الأفغانية التي تتميز بالخير الوفير، والخضرة الناضرة، وعاصمتها كانت تدعى "بامنين" كما يقول ياقوت الحموي في معجم البلدان، والنسبة إليها "بامنجي" وممن ينسب إليها أسعد بن يوسف البامنجي. وينسب إلى بادغيس عدد كبير من العلماء والأدباء كأبي نصر أحمد بن محمد بن عمر البادغيسي المحدث، ومن شعرائها المشهورين في التاريخ الأدبي حنظلة البادغيسي، وهو من خجستان بادغيس، وكان في مقدمة شعراء الدرية (٢). أيام الدولة الصفارية.

١٢- كابل

كابل عاصمة أفغانستان ومركز الثقافة الأفغانية منذ القديم. ومن أشهر علمائها في تلك الفترة التاريخية أبو حنيفة النعمان بن ثابت رحمه الله تعالى مؤسس المذهب الحنفي، وقد أسر جده في فتح كابل، وهو من مواليد الكوفة في العراق، وأبو مجاهد علي بن مسلم الذي تولى القضاء في الري، وهو من شيوخ الإمام أبي حنيفة النعمان، ومكحول بن أبي مسلم شاذل الكابلي إمام أهل الشام، وأبو عثمان بن عمرو بن عبيد الكابلي الأصل البصري المنشأ، وأبو عبد الله نافع الكابلي الأصل المدني المنشأ. وفي كابل الآن مدرسة دار العلوم العربية التي تقوم بتدريس العلوم الإسلامية والعربية على الطراز القديم، ومدرسة أبي حنيفة التي تقوم بتدريس العلوم الدينية والعربية على الطراز الحديث، وكانت تسمى قبل ذلك بدار الفنون العربية (٣).

١٣- لغمان

- ١ - محمد علي البار: المرجع السابق، ص ٣٦٥-٣٦٦، وكارل شتولز: اللغة العربية في أفغانستان: مجلة مجمع اللغة العربية في دمشق، المجلد ٣٠، ص ٢٦٧، عام ١٩٥٥م، ومحمد أمان صافي: أفغانستان واللغة العربية عبر العصور، ص ٦٠، القاهرة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
- ٢ - محمد علي البار: أفغانستان من الفتح الإسلامي إلى الغزو الروسي، ص ٣٧٨، والباخري، ٢: ٢٥٨، وعبد الحي حبيبي: تاريخ أفغانستان بعد أن إسلام، ١: ٧٥٩.
- ٣ - محمد أمان صافي: نفس المصدر، ص ٦٣، ومحمد علي البار: نفس المصدر، ص ٣٤٤.

أما لغمان أو لمغان في شرق أفغانستان فقد ظهر فيها عدد كبير من العلماء والأدباء، يقول ياقوت الحموي... خرج من لمغان جماعة من الفقهاء والقضاء، وفي بغداد بيت منهم، ومن هؤلاء الفقهاء والعلماء أبو يعقوب إسماعيل بن عبد الرحمن بن عبد السلام اللمغاني، وكان مدرسا بمدرسة أبي حنيفة النعمان في بغداد، وأبو تمام بن عبد الملك بن عبد السلام اللمغاني، وكان مرجعا في الفقه الحنفي، وأبو محمد عبد السلام بن إسماعيل بن عبد السلام اللمغاني أحد القضاة المشهورين في بغداد، وأبو يعقوب يوسف بن إسماعيل اللمغاني أحد مدرسي الفقه الحنفي في جامع السلطان في بغداد وغيرهم^(١).

١٤- جوزجان

مركز آخر من المراكز العلمية والأدبية في شمال أفغانستان، من أشهر علمائها ومؤرخيها أبو عمر عثمان بن منهج الدين بن سراج الدين الجوزجاني مؤرخ الدولة الغورية، وهو صاحب طبقات نصري و نصري نامه، وأبو سليمان موسى الجوزجاني من تلاميذ الإمام محمد الشيباني، من آثاره السير الصغير والنوادر، وأبو بكر أحمد بن إسحاق الجوزجاني، وهو من تلاميذ موسى الجوزجاني، من آثاره كتاب الفرق والتمييز، وكتاب التوبة، وأبو إسحاق بن يعقوب السعدي الجوزجاني، المحدث المشهور الذي روى عنه طائفة من أهل العلم^(٢).

١٥- تخار

تخار أو طخارستان مركز شهير من المراكز العلمية والثقافية والأدبية، حاصرتها مدينة طالقان "تالقان" تليها أندراب ثم خلم، من علمائها المشهورين المحدث محمود بن خداس الطالقاني، ومحمد بن محمد الطالقاني، من علماء الحديث، وأبو الحسن الطالقاني من علماء الفقه الحنفي، والشاعر الشهير بشار بن براد الطخاري، الطخاري الأصل البغدادي النشأة والوفاة. وقد ظهر في مدينة خلم أبو الفتح أحمد بن محمد الخلمي البلخي، وشيخ الإسلام محمد بن محمد بن بكر الخلمي، والشاعر الأمير جمال الدين الخلمي^(٣).

١٦- قندس

- ١ - محمد أمان صافي: المرجع السابق، ص ٢٦٧، و خليل الله خليلي: الفقهاء اللمغانيون في بغداد؛ والذهبي: المختصر، ٢: ٣١٤، والقرشي: ١: ٧١.
- ٢ - محمد علي البار: نفس المصدر، ص ٤٠٠، وصافي: نفس المصدر، ص ٢٥٦.
- ٣ - محمد أمان صافي: نفس المصدر، ص ٢٨٢، ومحمد علي البار: نفس المصدر، ص ٣٩٨.

قندس أو قندز أو كندز من المراكز الثقافية أيضاً، ومن أشهر شعرائها أبو المكارم الحسيني البلخي القندزي. وفي مدينة فندس الآن مدرسة تخارستان التي تطبق في تدريس العلوم الإسلامية والعربية طريقة التدريس التقليدية القديمة، ودون التمييز بين العلوم الدينية والعربية^(١).

١٧- فارياب

فارياب الولاية وعاصمتها مدينة "ميمنه" مركز مهم من المراكز الأدبية في أفغانستان الشمالية، قتل فيها الإمام يحيى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم سنة ١٢٥هـ/ ٩٧٣م. ومن أشهر علماء فارياب الإمام محمد بن يوسف الفاريابي المحدث العالم، أستاذ الإمام البخاري، وصاحب الإمام سفيان الثوري، وله مؤلفات في الحديث أشهرها المسند، وأبو بكر جعفر بن محمد المستفاض الفاريابي، وكان قاضياً في الدينور^(٢). وفي مدينة ميمنه الحاضرة مدرسة باسم "الظاهر شاهية" الحكومية تقوم بتدريس العلوم الدينية والعربية وفقاً للمنهج التقليدي الموروث وكأنها معهد من المعاهد الأزهرية.

١٨- بغلان

بغلان من أنزه بلاد الله - كما يقول ياقوت الحموي - لكثرة الأنهار، والتفاف الأشجار، ومن أشهر علمائها الإمام قتيبة بن سعيد بن جميل، رحل إلى مكة المكرمة، والمدينة المنورة وغيرهما، وسمع الحديث من الإمام مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه ومن غيره. وكان مبسوطاً له في العلم والمال والجاه^(٣). وفي بغلان عشر على كتيبة في غابة من الأهمية، يعود تاريخ كتابتها إلى العصر الكوشاني، وتحمل كلمات يمكن تفسيرها على أنها بشتوية أفغانية، كما يمكن تفسيرها على أنها درية فارسية.

١٩- سمنجان

سمنجان ولاية من الولايات الأفغانية الشمالية بها طائفة من عرب تميم. من علمائها المنسوبين إليها أبو الحسن علي بن عبد الرحمن السمنجاني كان عالماً متبحراً في العلم، كثير العبادة دائم التلاوة، وأبو الحسن علي بن محمد السمنجاني، وكان من علماء الحديث^(٤).

١ - محمد علي البار: المرجع السابق، ص ٤٠٥.

٢ - محمد أمان صافي: المرجع السابق، ص ٢٣٩ وما بعدها؛ ومحمد علي البار: المرجع السابق، ص ٤٠١-٤٠٢.

٣ - محمد علي البار: نفس المصدر، ص ٤٠٢-٤٠٣، محمد أمان صافي: نفس المصدر، ص ٢٤١.

٤ - محمد علي البار: نفس المصدر، ص ٤٠٣-٤٠٥.

وهكذا كانت أفغانستان في العصرين الغوري والغزنوي، مزدهرة بالمراكز الثقافية والعلمية والأدبية مما كان أبلغ الأثر وأحمله على الحركة الأدبية، ويجب أن أقول هنا بأن حكام وأمرء هذه المراكز الأدبية كانوا دائماً يشجعون الحركات الأدبية والعلمية، وبخاصة حكام الغوريين والغزنويين بالإضافة إلى السلاجقة والخوارزمية، إذ كان كثير منهم شعراء وأدباء، ينشدون الشعر ويتذوقون الأدب ويطربون له.

والآداب الأفغانية في هذه الفترة من فترات التاريخ الأفغاني أعني في العصور الغورية والغزنوية والسلاجقية آداب إسلامية، بل هي خلاصة الآداب والفنون الإسلامية، والنتاج العلمي والأدبي في هذه العصور روعة من الروائع الأدبية والفنية، وتعلقها باللغة العربية وفنونها وآدابها تعلق جذوره عميقة وفروعه مثمرة نافعة^(١).

مستطهر بعبارات وألسنة تفننت كالرياض الغر ألوانا

هذه الحواضر الأفغانية التي تعاقب عليها حكم كل من الغوريين والغزنويين، ثم السلاجقة والخوارزميين، كانت مراكز للعلوم والآداب، وقد ازدهرت فيها كل ألوان المعرفة، كما ازدهرت فيها كل أنواع الأدب، وكانت لها المشاركة الفعالة في تطور اللغات وآدابها. وقد أسدت إلى المعرفة الإنسانية - وبخاصة في ظلال الغوريين والغزنويين - أروع أنواع الآداب وأجملها، وكانت وما زالت تحمي التراث الإسلامي، وتضيف إليها كل جديد. ولا يخفى على أحد ما قام به السلاطين الغوريون والغزنويون، وعلماء هذه الحواضر من خدمات علمية جليلة في العقيدة واللغة والفكر والأدب، من أمثال محمد الغوري، ومحمود الغزنوي. وأحمد شاه الدراني. ولم يكن تعدد العاصم والحواضر الإقليمية يعيق التقدم العلمي والتطور الأدبي والازدهار اللغوي وهو في الحقيقة مظهر من مظاهر القوة السياسية، واليقظة الاجتماعية، والتنافس العلمي والأدبي. التعددية تمثل شخصية الأمة، وحيوية حضارتها، وفكرها الإنساني. وهو ذو أثر فعال وحسن في الآداب والعلوم، بحيث نرى كل سلطان من السلاطين، وكل وال من ولاية الأقاليم يعمل لنهضة الأمة وتقدمها، ويدفعها إلى الأمام، كل ذلك في إطار التنافس البناء الذي يبني ولا يدمر، يشيد ولا يهدم. أرى أن تعدد الحواضر، والحكام والسلاطين لم يكن ضارا بالأدب، بل كان نافعا استفاد منه الفن الأدبي والعلمي، لما كان بين الأمرء والولاة والسلاطين في مراكزهم السياسية والعلمية من تنافس بناء في حرصهم على أن تعمر مجالسهم بالأدباء والعلماء والشعراء، وكانوا يغارون من أن يكون مجالس غيرهم من السلاطين والحكام أكثر ازدهاراً بالأدب

١ - الباخرزي: ٢: ٢٣٧، محمد أمان صافي: نفس المصدر، ص ٥٢٨.

والأدباء، وبالعلم والعلماء، من مجالسهم. كل هذه الجهود الأدبية والعلمية التي كانت تبذل في العواصم، والحواضر في ظل التنافس الأدبي والعلمي بين السلاطين وحكام المراكز يدل على أن التعدد لم يكن ضاراً، بل كان له أجمل الأثر في ازدهار الآداب والمعارف والفنون. بقي سؤال واحد، وهو كيف كانت علاقة السلاطين وحكام الحواضر في أفغانستان مع الخليفة في بغداد في ظلال هذا التنافس المثمر؟ وجواب هذا التساؤل كالآتي:

علاقات الغوريين والغزنويين بالخلافة العباسية

كان الغوريون من مناصري الخلافة العباسية، ولأمير كرور جهان بهلوان جولات وصولات، وقصائد خالداً أنشدتها في البطولات التي أبدأها وحازها في الجهود التي بذلها لمناصرة الزعيم أبي مسلم الخراساني للإطاحة بالخلافة الأموية وإقامة الخلافة العباسية^(١)، ومن مآثر الغوريين أنهم لم يلعنوا آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم وبقوا أوفياء لآل علي رضي الله تعالى عنه حين اشتد السخط عليهم أيام الأمويين^(٢).

في سنة ٥٩٤هـ / ١١٩٨م عبر الخطا نهر آمو "جیحون" فعاثوا في البلاد الفساد، وقاموا بالتهب والسلب، وذلك بطلب من خوارزم شاه تكش الذي تعرض إلى عساكر الخليفة، فكتب الخليفة إلى السلطان غياث الدين ملك الغور وغزنة يأمره أن يقصد بلاد خوارزم شاه، فقام غياث الدين الغوري، وقاتل الخطا، وألحق بهم الهزيمة، وطلب من خوارزم شاه طاعة الخليفة في بغداد^(٣). وكانت علاقات الغزنويين بدار الخلافة في بغداد قوية كذلك، فقد قاتلوا الرفضة والإسماعيلية والقرامطة إرضاء لدار الخلافة، وضيق على المعتزلة ونفاهم إرضاء للخلافة أيضاً وإرضاء للخلافة كان محمود الغزنوي يكتبها بعد كل فتح يقوم بها في بلاد الهند.

مقارنة بين شاعرين من شعراء البلاطين

بلاد الغور وبلاد سيستان إقليمان شقيقان متجاوران، شكارندوي الغوري والفرخي السيستاني شاعران متقاربان في الوطن والمشرق، فالأول كان من شعراء البلاط الغوري في فيروز كوه أو "آهنكران" في وسط أفغانستان وكان الثاني من شعراء البلاط الغزنوي في مدينة غزنة في قلب أفغانستان أيضاً وإن كان أصله من سيستان، أنشد الأول الشعر باللغة الأفغانية "البشتوية" وأنشد الثاني الشعر

١ - محمد بن داؤد الهوتكي: نفس المصدر، ص ٣٠.

٢ - محمد أمان صافي: نفس المصدر، ص ٥١٣.

٣ - ابن الأثير: نفس المصدر، ٩: ٢٤١.

باللغة الدرية "الفارسية" الأول من أشهر شعراء الأفغانية "البشتوية" في البلاط الغوري الذي دمج بين أشهر الآداب، وتأخى بين أشهر اللغات في أفغانستان الغورية، والثاني من أشهر شعراء الدرية "الفارسية" في البلاط الغزنوي الذي كان من أهم مراكز الآداب والمعارف الإسلامية المختلفة، كان كل منهما من أشهر الشعراء في عصره وفي إقليمه، وفي البلاط الذي ينتمي إليه.

بلاد الغور وبلاد السيستان من المراكز الأدبية والحضارية في أفغانستان الخراسانية، فعاصمة البلاد الغورية "فيروز كوه" كانت بمثابة مدرسة للدراسات الأدبية والمعارف الأفغانية الإسلامية، والدراسات الشعرية، وشقيقتها عاصمة البلاط السيستانية "زرنج" كانت بمثابة مدرسة للدراسات في السنة النبوية، والعلوم العربية، والمعارف الأفغانية، والدراسات الشعرية وقد نشأ فيها الفرخي نشأته الأولى. "فيروز كوه" في بلاد الغور، و "زرنج" في بلاد سيستان كانتا ملتقى الآداب، ومرتع اللغات الإسلامية، لعبتا دورهما الأدبي والعلمي في مختلف العلوم والمعارف والفنون والآداب، وللاقليمين أو الحضرتين في أفغانستان مكانة أدبية مرموقة، ومنزلة علمية رفيعة، حيث قد شجعنا دوما الشعراء والأدباء والعلماء، ورجال الفن والفضل في البلاد الأفغانية وما جاورها من المدن والبلاد والأقاليم، وكثير من هؤلاء كانوا متصلين بالبلاطين والسلطانين الغوري والغزنوي.

١- شكارندوي

شكارندوي بن أحمد الغوري أحد الشعراء المرموقين في البلاط الغوري في أفغانستان الغورية، كان أبوه أحمد حاكم قلعة فيروز كوه "جبل النصر" الحصينة المشهورة، وهو غوري موطننا ونسبنا، وكانت أسرته تتمتع بمكانة مرموقة في البلاط السلطاني الغوري في فيروز كوه "جبل النصر". كانت حياة الشاعر شكارندوي بن أحمد الغوري موزعة بين الحواضر الغورية الثلاث فيروزكوه، وبست، وغزنة، وهو شاعر بارع، وأديب عالم، وقف شعره على المدح ووصف الطبيعة ومشاهدها الجميلة، وقد خدم البلاط الغوري أيام السلطان محمد سام الشنسي، وقد مدحه كما مدح السلطان غياث الدين الغوري^(١).

ديوان شعره مفقود، وقد شاهده المؤرخ الأديب محمد بن علي البستي في مدينة بُست التي كانت أحد المراكز الأدبية والعلمية والثقافية أيام الغوريين والغزنويين، وقد نقل منه القصيدة التي قمت بنقل عدد من أبياتها إلى العربية لإقامة موازنة أدبية أو مقارنة نقدية بينها وبين قصيدة للشاعر السيستاني الفرخي الذي تغني كثيرا بمدح الغزنويين.

١ - محمد بن داؤد الهوتكي: نفس المصدر، ص ٤٨.

الشاعر شكارندوي بن أحمد الغوري من الشعراء الأفغان الذين غدوا الأدب الأفغاني بمدائحهم في الغوريين، كما كان الفرخي الذي أثرى الأدب الدرّي "الفارسي" بمدائحهم في الغزنويين. مهد الشاعر الغوري بوصف الطبيعة ومحاسنها ومشاهدها الرائعة لغزوة إسلامية قام بها السلطان شهاب الدين الغوري الذي توجه من عاصمته في قلب أفغانستان حتى عبر نهر أباسين "السند" عند معبر "أتك" على جسر قوامه قلوب الناس الذين اصطفوا على شاطئ النهر لاستقبال السلطان الغوري الذي جاء متوجهاً إلى الهند لينشر الإسلام في ربوعها الفسيحة، وقد جمع الشاعر الغوري في قصيدته على قصرها فنونا من الحسن والروعة والجمال، وأصنافاً من فنون البديع والبيان، ويرى فيها الناقد ما يراه من القوة والإحكام، وما يضيفه على الكلمات المصورة، والعبارات المعبرة من الروعة والسحر والجمال، والبريق واللمعان، مما يجعل القصيدة تبرز في صورتها راقصة كتراقص النسيم على شاطئ النهر، وقد تمكن الشاعر شكارندوي الغوري من أوصاف الكمال، ومن استيفاء شرائط الحسن والجمال للوصول إلى الحديث عن الغزوة الإسلامية التي قام بمدوحه الملك شهاب الدين الغوري في بلاد الهند، وفيما يلي ترجمة الجزء الأكبر من قصيدته التي يمدح فيها السلطان الغوري:

وصيفة الربيع قد أعادت الزينات ثانية
فقامت تنثر شقائق النعمان فوق الجبال
أخضرت الأرض بسهولها وجبالها وسفوحها
ولبست الجبال الطيلسان الزمردى
إن وصيفة الربيع تستحق تقبيل يديها
حيث زينت الحدائق باللؤلؤ والياقوت
شقائق النعمان تبتسم إلى أزهار "الريدي"
والفتيات الفاتنات تتراقص في المروج الخضراء
كما تتراقص العروس بحلل جبينها من الذهب الأحمر
وشقائق النعمان تضيء جمالا بالذهب الأحمر^(١)

ويمضي الشاعر فيصف محاسن الطبيعة ومشاهدها الضاحكة الباسمة، ويذكر الأمطار وما تمطره من الجواهر والياقوت، والزهور وما تثيره بلعانها وسط المروج، وذوبان الثلوج الذي يشبه الدموع، وجداول المياه النشوى التي تصطدم بالصخور، والورود التي تفوح بالروائح، ودبيب الحياة في

١ - حبيبي: نفس المصدر، ٢: ١٢٩ وما بعدها، ومحمد هوتك بن داؤد: نفس المصدر، ص ٤٨-٥٨.

الأحياء كعودة الحياة إلى الأموات، وتغريد البلابل، وتبسم البراعم، حتى يصل من خلال هذه المقدمة الطبيعية الضاحكة إلى بيت القصيد، أو إلى بيت الانتقال إلى "كريز كاه" فيقول مادحا:

لن يتوقف البلبل عن الثناء على الورد ومدحه
ولن أتوقف أنا عن الثناء على السلطان ومدحه
إنه شمس أسرته السنسبية المشرقة
الذي بفضله وكرمه أصبحت الفلوات مخضرة خصيبة
وقد عم كرمه وجوده البلاد كلها فاخضرت بأسرها
ولتفقد أحوالها يرحل دائما بين قصدار وديبل
عندما يمتطي صهوة فرسه المنتصر في زابل
يصوب ضرباته السديدة إلى لاهور
لا يجرؤ أحد من الأعداء من الوقوف أمامه
ولا تقوى الأتراس على مقاومة سيفه
إنه شهاب الدين، وشمس العالم
أنار البلاد المظلمة بنور الجهاد
كلما أغار على بلاد الهند والسند
كلما أضاء الدنيا بشهاب الحق
عندما هم بعبور النهر عند "أتك" في الربيع
جعل الناس قلوبهم جسرا يصل بين الشاطئين
إنه نجم، ولن تضيئ نجمة أخرى مثله في السماء
ولو ظهر الكثير من نجوم الأبطال في بلاد الغور
ولن يتمكن أحد منهم من سوق جند مثله نحو السند
ولن يتمكن أحد سواه من فتح المدن في الهند
ولن يقوى أحد غيره على توحيد شباب الغور
وإذا لم يوحده، فكيف كان سيظهر بريق سيوف الداور
إن شهاب الدين هو الملك الوحيد الذي
قد قاد الحملات في كل مكان، وفي كل البلاد
عندما ينوي سيد الغور حملته البطولية

فإنه يقود حشود جنده أفواجا زاحفا إلى الهند
اليوم يعبر النهر للقيام بشن هجومه بغتة
فترتعد الأسود في الأحراش خوفا ورهبة
وخشية منه يمتثل البحر الهادر لأمره
فيحمل على ظهره سفن الغوريين
إن معبر "أتك" يرحب به كل عام
ويفرش شطآنه بالرمل الناعم ترحيبا به

حتى يقول:

لن يتواني جند الشهاب عن الهجوم
ولن يغادر الشباب صفوفهم السائرة
هل الأسود تنحرف عن طريق الأعداء
قبل أن يحطم سواعدهم ورقابهم؟
إما أن يرفعوا رايات النصر في ربوع الهند
أو يضحوا بحياتهم في إنجاز هذه المهمة
إما أن يحطموا معبد عبدة الأصنام
أو يجعلوا البلاد محمرة بالدماء
عشت منيرا دائما يا شهاب الدين
وليرفع اسمك دائما على المنابر في المعابد
لتنير ربوع الهند الفسيحة ببريق سيفك
حتى تمحو معبد الأصنام من العالم
فليكن الله عوننا لك ونصيرا أيها الملك
أما نحن فأعوان لك ما دمنا على قيد الحياة^(١)

١ - حبيبي: نفس المصدر، ٢: ١٢٩-١٤١، بشتو تولنه، كابل، ١٣٤٢هـ ش، ومحمد أمان صافي: بست

وسيستان وأهميتهما التاريخية والأدبية، ٩٤-٩٩، دار شرف للطباعة والتجليد، القاهرة، ١٤١١هـ/

١٩٩١م.

فقد وصف الشاعر شكارندوي "الصيد" الطبيعة في الربيع، وصورها تصيرا بارعا تختلط فيه المشاعر بالمشاهد، من اخضرار الطبيعة في موسم الربيع، وتراقص النسومات، وتفتح براعم الأزاهير ودلالها كالأبكار الكواعب، وأغاريد البلابل، وانتشار اللؤلؤ والجواهر والمرجان، ومن تسلط أشعة الشمس المنيرة على الثلوج البيضاء على قمم الجبال الشاهقة وسفوحها المغطاة بالثلج الأبيض الناصع، وتموج الأنهار الناشئة من ذوبان الثلوج، وهدير مياهها المتدفقة، وغير ذلك من مشاهد الطبيعة في موسم الربيع الضاحك، كل ذلك كمقدمة للوصول إلى الهدف وهو مدح السلطان شهاب الدين الغوري الذي كان يتجه لفتح المدن الهندية في مواسم الربيع. فقد مهد الشاعر شكارندوي بهذه الصورة الرائعة لغزوة إسلامية قام بها السلطان شهاب الدين الغوري، واتجه لأجلها نحو البلاد الهندية حتى عبر النهر معبر "أتك" على جسر من قلوب الناس الذين استقبلوه بترحاب. هذا ما كان من شأن شاعر أفغاني وممدوحه في الشرق الممتد عبر الحدود الهندية.

وفي مقابله هناك شاعر أفغاني آخر عاش في البلاط الغزنوي، وقام بتصوير معركة أخرى قام بها سلطان آخر من سلاطين أفغانستان الغزنوية، وهذا الشاعر النابغة هو الفرخي السيستاني الذي صور عبور السلطان محمود الغزنوي بجنده نهر جيحون "آمو" في الشمال الأفغاني لفتح أقاليم ما وراء النهر، وضمها إلى إمبراطوريته الكبرى. وهذا الشاعر العظيم هو.

٢- الفرخي

وأبو الحسن علي بن جولوغ الفرخي أحد الشعراء النابغين في البلاط الغزنوي، وكان أبوه في خدمة الأمير خلف بانو أمير سيستان، فهو سيستاني مولدا ومولدا، وكانت أسرته تشتغل بالفلاحة في سيستان "سجستان" الأفغانية.

كانت حياة الفرخي موزعة بين سيستان وجغانيان وغزنة، وهو شاعر بارع، وأديب فاضل، ينسب إليه كتاب في فنون البلاغة اسمه ترجمان البلاغة وقد مدح الأمير أحمد بن محمد أمير جغانيان، ثم تفرغ لمدح السلطان محمود الغزنوي. وديوان شعره كان مجهولا في خراسان، مشهورا فيما وراء النهر، وقد طبع في السنوات الأخيرة عدة طبعات حديثة. وكان شاعرا غنائيا مداحا حيث وقف شعره على المدح والغزل والطبيعة، وله ذوق لطيف، وقريحة شعرية وقادة، وكان يجيد فنون الشعر المختلفة، خصوصا في القصيدة، وكانت أعظم قصائده في الغزويين، وكان الفرخي كالعنصري وشكارندوي ومنوجهري يستهل أغلب مدائحه بوصف مشاهد الطبيعة.

وهو من كبار الشعراء الذين التفوا حول السلطان محمود الغزنوي في غزنة في قلب أفغانستان، ومن الشعراء المعروفين بسلامة التفكير، واعتدال الطبع، وله بين الشعراء في البلاط

الغزنوي منزلة المتنبي في البلاط الحمداني بحلب، فكلاهما بارع في القول السهل المتنوع، واللفظ الجزل، والمعنى الغزير، الخالي من التعقيد والتكلف. وفي شعر كل من الشاعرين الفرخي والمتنبي طلاقة وعذوبة ورقة، وهو في غاية الجودة والسلاسة.

وقد أجاد الفرخي المدح والغزل، ووصف الطبيعة، وتصوير الوقائع التاريخية، وتسجيل فتوحات محمود الغزنوي وغزواته المظفرة، وهو في هذا المجال يعتبر من رواة القصة وروّادها البارعين، كما أجاد الرثاء بالشروط المعروفة في هذا الفن. وتلميحاته الشعرية وإشارات الفنية تليق بالاهتمام البالغ في النقد الأدبي. وهو من الشعراء البارعين في الفن الموسيقي، وفي الشعر الغنائي معاً. ويعيننا من كل ذلك مدحه للسلطان محمود الغزنوي عندما عبر جيحون "آمو" إلى ما وراء النهر حيث يقول:

لا عظمة ولا شرف ولا قدر ولا جاه ولا طالع
لا يحظى بكل ذلك أحد من الناس إلا بمدح السلطان
يمين الدولة أبي القاسم شمس الملوك
أمين الملة، ملك العالم محمود
كأصحاب الدين والعدل الكبار في العالم
المعروفين كأبي بكر وعمرو وعثمان
حديثه كله عن الله ورسوله
في الجد والهزل، والقبیح والحسن، والظاهر والباطن
كل الكبار يستفسرون الأخبار عن المنجمين
كبير الزمان يستطلع ذلك من القرآن
ومن هنا كلما اتجه إلى أي مكان تبعته العناية الإلهية دائماً
لم تكن للأنبياء معجزات أكثر من تلك
التي يملكها الملك، وهذا واضح للعيان
إن إقامة جسر فوق مياه جيحون والعبور عليه
لمعجزة كبيرة، وبرهان قوي على ذلك^(١)

١ - ديوان حكيم فرخي سيستاني، ص ٢٤٩ وما بعدها، تحقيق محمد دبیر سياتي، الطبعة الثانية، طهران،

١٣٤٩ هـ ش.

ويمضي الشاعر الفرخي معددا معجزات السلطان محمود الغزنوي، مشيراً إلى عجز الإسكندر فيما نجح السلطان في إقامة الجسر على نهر جيحون في مدة أسبوع، ويذكر انتصاراته وفتوحاته، ويصف عقيدته الدينية، وتمكسه الشديد بأحكام الدين الإسلامي، وأنه لا يوجد في العالم كله أحد أن يتقدم لقتال ممدوحه، ويتحدث كذلك عن الوقائع التي انتصر فيها السلطان محمود في هجمته هذه فيما وراء النهر، وأهمها هروب "علي تكين" من جند السلطان، ويعتبر هربه هذا نصر له:

إن الهرب منك يا مليك الملوك لنصر
وإن كان أمام ذلك النصر خذلان
كان هرب "علي تكين" منك أيها الملك
ألف عزل له، وألف عزل كذلك

ومن أهمها أيضاً لقاء السلطان مع قدر خان أحد زعماء السلاجقة فيما وراء النهر، وقد سمح له السلطان في هذا اللقاء بعبور السلاجقة إلى الأراضي الأفغانية، وكان ذلك بمثابة حفر قبر لدفن الإمبراطورية الغزنوية بيد السلطان نفسه، حيث كان هؤلاء السلاجقة أحد الأسباب الرئيسية في القضاء على الحكم الغزنوي ثم الغوري في أفغانستان، وقد أطال الشاعر في تصوير هذه الواقعة التاريخية، وأنشد فيها كثيراً من الأشعار منها هذه الأبيات:

هل هناك تعظيم لقدرة خان أكثر من هذا
جلس معك على مائدة واحدة كالندماء
فقد ارتفع رأس خان إلى السماء أيها الملك
عندما طلب الحاجب فرس خان من الإيوان
فبسبب ذلك التكريم الذي أكرمه به هناك
ينبغي له أن يشكر بمائة ألف لسان

حتى يقول:

إن الله قد نصرك على أعدائك
كما ضمن لك الفتح ثلاثين ألف مرة
فما دام الحمد والثناء يستمر في أوائل الخطب
وما دام العنوان يوجد فوق الرسائل
وما دام الإسلام، يدوم في أرضنا

وما دام القرآن يوجد بيننا
فلتكن أنت مالك العالم، وحميه وفاتحا له
فلتكن أنت مظفرا، وقابضا على الولايات حائزا على مرامك
اقبض على الأعداء واحدا واحدا واحبسهم في البئر
وامنح الأصدقاء المناصب العالية من جديد
كما أن هذا تعاملك وعادتك وطريقتك وخلقتك
افتح كل شهر مدينة من مدن الأعداء

المقارنة بين الشعارين:

وعند وضع القصيدتين أو الشعارين تحت مجهر المقارنة الأدبية، لبيان ما فيهما من المفاهيم الاجتماعية، والمعاني الشعرية، وما تحتوي عليه كل من القصيدتين من الأساليب، والتعابير الفنية، تتضح للناقد الأدبي الفروق الجوهرية، والمزايا الفنية التالية:

١- ذوق الشعارين

كان للشعارين الغوري والفرخي ذوق أدبي لطيف، وقريحة شعرية وقادة، وقدرة فائقة في فنون الشعر المتنوعة، وكانت أعظم قصائد الشاعر الفرخي في الغزنويين، وكانت أعظم قصائد شكارندوي في الغوريين الذي ينتمي إليهم الشاعر أيضاً.

٢- شهرة الشعارين

كان الشاعران شكارندوي الغوري والفرخي السيستاني من أبرز نجوم الشعر والأدب في أفغانستان ذلك العصر، يمثل أحدهما البلاط الأدبي الغوري في ثوب الأدب البشتوني الأفغاني، ويمثل الثاني البلاط الأدبي الغزنوي في ثوب الأدب الدرّي الأفغاني، كما يمثل الأول الفن الشعري البشتوني في إقليم بُست بالمعنى الجغرافي الواسع، ويمثل الثاني الفن الشعري الدرّي في إقليم سيستان أو سجستان، وهما إقليمان يحتضنان أو يعانقان شواطئ نهر هلمند الشهير يمّنة ويسرة، والتنافس العلمي والأدبي بين الإقليمين الأفغانيين العظيمين ملحوظ منذ عصور قديمة.

٣- تدين الشعارين

وعند القيام بعقد مقارنة بين تدين الشعارين يلاحظ أن الخمر لم تلعب برأس الشاعر الغوري شكارندوي بن أحمد، كما لعبت برأس الشاعر السيستاني أبي الحسن علي بن جولوغ بعد أن علا شأنه وعظم أمره عند الأمراء والسلطين، وبلغ شأوا بعيدا من الثراء والجاه والمال، فبالغ في احتساء

الخمير بلا حدود ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ ومعروف تاريخيا أن السلطان محمود الغزنوي قد طرده ذات مرة من حاشيته الملكية بسبب شربه الخمر مع أحد غلمانه دون إذنه^(١). والفرخي في ذلك متأثر بالأمرء والسلاطين الغزنويين الذين بالغوا في احتساء الخمر، واقتناء اللذة والمتعة بأنواعها، أما الغوريون وشاعرهم شكارندوي فكانوا على عكس من ذلك.

٤- طُول نَفْسِ الشَّاعِرِينَ

يبدو أن الفرخي أطول نَفْسًا من شكارندوي حيث يبلغ عدد أبيات قصيدته في المدح إلى ٦٣ بيتا من الشعر الدرّي الفارسيّ الجيد، بينما يبلغ عدد أبيات قصيدة شكارندوي إلى ٤٥ بيتا من الأبيات الشعرية البشتوية الجيدة. فهما في الجودة سيان، وإن كان الفرخي أطول نَفْسًا.

٥- قَافِيَةُ الشَّاعِرِينَ

أنشد كل من الشاعرين الغوري والفرخي قصيدتيهما في المدح على أوزان القصائد العروضية الدرية "الفارسية" التي قد تأثرت بدورها بالأوزان العروضية العربية في الوزن والقافية، ومعنى ذلك أن شكارندوي متأثر في ذلك بالأساليب الدرية الفارسية أولا، وبالتالي بالأساليب العروضية العربية. وقضية التأثر والتأثير قضية معروفة في الآداب الأفغانية.

٦- المَفرَدَاتُ العَرَبِيَّةُ فِي شَعْرِ الشَّاعِرِينَ

يكثر كل من الشاعرين الأفغانيين من استعمال المفردات العربية، ومن استخدام الأساليب العربية، غير أن الفرخي أكثر استعمالا من الشاعر الغوري، وهذا الأخير يكثر من استعمال الكلمات الدرية "الفارسية"، بل إنه قد نسج قصيدته في المدح هذه على المنوال أو الأسلوب الدرّي، بعيدا عن الأوزان الشعرية البشتوية الأصيلة الخاصة بالشعر البشتوني. ويلاحظ أدبيا ولغويا أن قلة استعمال المفردات والأساليب الأجنبية دليل على قلة تأثر الشعر الأفغاني البشتوني بالآداب واللغات الأجنبية، وهذا الأمر في الحقيقة دليل على أن اللغة البشتوية غنية بالثروة اللغوية الهائلة، وبالأساليب والمعاني الأدبية، والمفاهيم الفنية.

٧- مِبالِغَةُ الشَّاعِرِينَ

في كل من القصيدتين مدح للسلطانين الغوري والغزنوي، إلا أن الشاعر الغوري شكارندوي "الصيد" لا ينسى نفسه، ولا يتنازل عن شخصيته الذاتية، ولا عن عزته النفسية وهو يمدح في

١ - هلال، محمد غنيمي الدكتور: مختارات من الشعر الفارسي، ص ٦٩، الدار القومية للثقافة والإرشاد

القومي، القاهرة، ١٣٨٤هـ/ ١٩٩٥م.

قصيدته السلطان شهاب الدين الغوري ، أما الشاعر السيستاني الفرخي فقد نسى نفسه وذاته وعزة نفسه وهو يمدح في قصيدته السلطان محمود الغزنوي ، وذلك في البيت الأول من قصيدته حيث يقول:
لا عظمة ولا سلطان ولا جاه إلا في مدح السلطان محمود الغزنوي.

٨- مزاجية الشعارين

إن الشاعر شكارندوي يزاوج بين الفكر والطبيعة ، وبين العقل والحس في مدحه للسلطان ، وهو يعبر عن ذلك تعبيرا زخرفيا ، ولكنه تعبيرا يفضي بالإنسان إلى فكر عميق ، ويظهر في شكل زخرف طبيعي أنيق ، وقد استطاع الشاعر أن ينهض بفنه الشعري إلى هذا المدى من التعبير عن الفكر والزخرف معا. أما الشاعر السيستاني الفرخي فيزاوج في قصيدته بين الفكر والتاريخ ، وبين العقل والحدث التاريخي في مدح السلطان وهو يعبر عن ذلك تعبيرا عقليا يفضي بالإنسان إلى فكر عميق ، واستطاع أيضاً أن ينهض بفنه الشعري إلى هذا الحد من التعبير عن الفكر والحدث التاريخي معا.

٩- تمهيد الشعارين

فقد مهد الشاعر الغوري شكارندوي لمدح السلطان الغوري بمقدمة طويلة على غرار المقدمات التمهيدية لقصائد المدح العربية الطللية ، بينما دخل الشاعر الفرخي على مدح السلطان الغزنوي دون أن يمهد لذلك بمقدمة طويلة أو قصيرة كما فعله الشاعر الغوري.

١٠- أسلوب القصيدتين

المفاهيم العامة أو الأسلوب الوصفي في قصيدة شكارندوي مادية محسوسة ، أما الأسلوب والمفاهيم العامة في قصيدة الفرخي فيدور في أكثرها فيما وراء الطبيعة داخل الإطار العام للإلهيات.

١١- الغلو في التشبيه

شبه الفرخي ممدوحه الغزنوي بالأنبياء له معجزات كمعجزاتهم ، بينما نرى الشاعر الغوري شكارندوي لم يتجاوز حدود المدح الطبيعية الفطرية المحسوسة ، فلم يشبه ممدوحه بالرسل والأنبياء ، ولم يثبت له المعجزات كمعجزات الأنبياء.

١٢- فنون الحُسن والجمال

تناول شكارندوي في مقدمته التمهيدية الطبيعة الحية ، فوصفها وصفا دقيقا بارعا ، ولم يخل بيت من أبيات قصيدته من معنى بديع ، فقد جمع فيها على قصرها فنونا من الحسن وأصنافا من البديع ، واستوفى أوصاف الكمال ، واستكمل شرائط الحسن والجمال. أما الفرخي فلا يبلغ في قصيدته

هذا المبلغ الذي بلغه الغوري، حيث حشر الفرخي نفسه بين المدح والتاريخ، والتاريخ كما هو معروف عند النقاد يسيطر عليه الجمود.

١٣- نهاية القصيدتين

يقوم الفرخي بإنهاء قصيدته بالدعاء لمدوحه، ولكنه يطالبه بأن يمنح أصدقاءه وهو منهم المناصب العالية، ولا وجود لذاته أو لشخصيته الذاتية والقومية، أي لا يضع نفسه وقومه تحت تصرف السلطان المدوح، ولا ينسى في هذه الحالة شخصيته الذاتية، واعتزازه بها فيعبر عن ذاته، ويقدم استعداد نفسه وقومه لنصرة المدوح الذي يتجه نحو الهند لنشر الإسلام فيها.

١٤- الفرق بين الغزوتين

غزا السلطان محمود الغزنوي إقليمًا من أقاليم ما وراء النهر لإخضاعه فاستسلم قادر خان، وهرب "علي تكين" وتمكن من التسلط على ما أراد التسلط عليه، وعاد إلى غزنة منتصرًا على المسلمين هناك، وقام الفرخي بمدحه لهذا الانتصار.. انتصار المسلم على المسلم، ومن هنا جاء مدحه فاترًا، لا حياة فيه ولا حركة، خاليا من الانفعال والحرارة المعروفة في مثل هذه المدائح والانتصارات. وفي المقابل قام السلطان شهاب الدين الغوري بغزو الهند غزوة إسلامية بهدف نشر المبادئ الإسلامية السامية في ربوعها، وقد تم له الفتح والنصر على الأعداء، وعاد إلى بلاد الغورية في أفغانستان منتصرًا على غير المسلمين، وقد مدحه الشاعر شكارندوي قبل أن يتم له ذلك، ومن هنا جاء مدحه حيا يضح بالحركة والحيوية، وبالانفعال والحرارة المطلوبة في مثل هذه الغزوات الإسلامية التي تعود عليها الملوك الأفغان ابتداءً من أيام الغزنويين والغوريين وانتهاءً بالإمبراطور الشاعر أحمد شاه الدراني الأبدالي بطل معركة "باني بت" في وسط الهند.

١٥- البداوة والجمال

الفرخي شاعر قدير من شعراء البلاط الغزنوي، وشكارندوي من شعراء البلاط الغوري، وحياة الشعارين في المراحل الأولى على الأقل بدوية جبلية، غير أن البداوة الجبلية أكثر تمكنا من شكارندوي وقصيدته الشعرية، ولم تتمكن طبيعته مفارقة الطبيعة الجبلية ومحاسنها الفاتنة، أما قصيدة الفرخي في المدح فليست كذلك، ذلك لأنه على ما يبدو قد تغيرت طبيعته، وتأثر بالحضارة بعد أن التحق بخدمة الأمراء والسلطين، وعاش في بلاط غزنة عيشة الرفاهية المسرفة. ومن هنا جاءت قصيدته تضرب على وتر غير الوتر الذي تضرب به قصيدة نده شكارندوي..

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب

١٦- المفقود والموجود

وهناك فرق كبير بين الشعارين أو الديوانيين حيث إن ديوان الشاعر شكارندوي مفقود معدوم ككثير من درر الأدب الأفغاني البشتوني النفيسة، وبينما ديوان الحكيم الفرخي موجود مطبوع وفي متناول الأيدي والأقلام، وبالإضافة إلى هذا الفرق الجوهرى هناك فرق آخر، وهو وجود كتاب ينسب إلى الفرخي باسم ترجمان البلاغة فالفرخي يتفوق على الغوري في ميزان التاريخ والعلم والثقافة، حيث لا يوجد من ديوان شكارندوي إلا قصائد معدودة، ومعلومات محدودة مسطورة في بطون الكتب الأدبية والتاريخية.

هذه بعض الفروق الجوهرية بين الشعارين أو القصديتين بدت واضحة جلية في الزخرف والتنميق أثناء المقارنات الأدبية والفنية، وكذلك من خلال المقارنات التاريخية والاجتماعية، كما ظهرت واضحة مشرفة مشرقة في الوشي والأنافة من الموازنات النقدية التي جرت بين الشعارين الأفغانيين أنشد أحدهما وترنم بالأفغانية البشتوية، وشدا الآخر وتغنى بالدرية الفارسية، عاش كل منهما في بلاطين أدبيين احتضن أحدهما الأدب البشتوني والدرى معاً، واحتضن الآخر الأدب الدرى وحده. وهناك كثير من الفروق الأدبية الأخرى التي تميز أحد الشعارين عن الآخر لا يسع المجال لبيانها، والقليل في مثل هذه المجالات يغني عن الكثير.

صحيح أن في مثل هذه المقارنات الأدبية والموازنات النقدية سمات من الصعوبة، وبصمات من الخشونة، وعلامات من الميولة، ولكن بعد شئ من الصبر يمكن فهمها وتحديدها، فإذا ما تم ذلك وجدنا أنفسنا أمام شموخ الفكرة، وإنجاز الصورة، وإبداع الحركة، وروعة العبارة في فن شعري حسن الاستواء، بارع الصنعة، راشد المنهج عند كل من الشعارين.

إن لكل واحد من هذين الشعارين لمحات أدبية تجديدية في الفكر والصوغ والأسلوب، وفي اللغة والمحتوى والإطار بحيث يفرض نفسه على الشعر، ويمثل نقطة انطلاق يختلف مداها عمقا واتساعا بين الواحد منهما والآخر، رغم ما قلت حولهما في هذه الرحلة الأدبية من الأقوال في النقد والمقارنة، وفي التصوير والأداء وفي تفضيل أحدهما على الآخر في التعبيرات الأدبية، والأساليب الحديثة.

* * * *